سيدي قنصل بابل

-عشرون سنة بدون جنسية-

رواية لـ /نبيل نوري لگزار موحان

سيدي قنصل بابل

-عشرون سنة بدون جنسية-

رواية د /نبيل نوري لگزار موحان

Nabil NOURI LAGHZAR MOUHANE

ISBN 978 9923 24 068 7

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى 2020: دار النشر ابن النفيس. الأردن

الطبعة الثانية 2020: دار النشر الكتاب حياة. العراق

سيدي قُنصل بابل

الطبعة المنقحة

2021

<u>للتواصل مع الكاتب</u>

نبيل نوري لگَزار موحان

Nabil NOURI LAGHZAR MOUHANE

رقم الهاتف :00212630891846

الايميل: nabil.laghzar@gmail.com

مواقع التواصل الاجتماعي بنفس الإسم الكامل للمؤلف

إهداء..

إلى أمي التي لن تقرأ هذه الكلمات؛ شكراً سيّدتي العظيمة

إلى أبنائي وأحفادي مستقبلاً؛ لا تيأسوا أبداً وتذكروا دوماً أن صوت الأمل بداخلكم ليس وهماً بل وعد له وقت ويتحقق..

إلى حبيبتي؛ ابنة الأقدار؛ هل سأجدك يوماً؟

إلى جمعية أرض البشر؛ شكراً من أجل الفسحة بين جدرانكم، شكرا لأنكم شريك للأمل..

إلى أصدقائي وإخوتي؛ شكراً لأنكم جزء من حياتي وأتمنى دوماً ان تكونوا الأحسن.

إلى من جلبته الأقدار لقراءة هذه السطور؛ اتمنى لك رحلة سعيدة.
لعلّنا نلتقي يوماً.

تقديم نخبة من الأدباء العراقيين والمغاربة

مقداد مسعود (كاتب وناقد عراقي)

ليس سوى العراق (سيدي قنصل بابل): نبيل نوري لگَزار موحان

البطلةُ في الرواية هي الأمُ المغربية: كابدتْ وبقيتْ باسقة كنخلة ومتقوسة كسنبلة على وحيدها العراقي.

(*)

كقارئ للرواية، لم أرَ الأم خارج عينيّ وحيدها المكابر، وقد صنعته حياتيا بعينيها.

(*)

بين ضبابِ التذكر وفاعلية المخيال، بثت الطفولةُ تنمويتها في حياة الولد العراقي.

(*)

سارد (قنصل بابل) ليس المؤلف وكاتب الرواية ليس نبيل نوري. نبيل لهُ فاعلية الأمالي. أما السارد فهو القدر بموضوعيته وذاتيته كشخصية مشاركة في صوغِ حياتهما: الأم / الولد

(*)

الأب ليس مغيّبا بالقوة بل بالتسيير الذاتي، هو تغيب بإرادتهِ عن حياتيّ: الزوجة الوفية والولد المحروم: مجرّداً حياته مِن مهابةِ الأب.

(*)

رجلان بين قوسين أنثويين

رجلٌ عراقي / أمٌ عراقيةٌ بصريةٌ ريفيةٌ قاسيةٌ بِلا ضفاف

ولدٌ عراقي/ أمٌ مغربيةٌ كادحةٌ، تبذلُ المستحيلَ مِن أجلِ وحيدها

(*)

الولدُ: يريدُ أبوتهُ العراقية المكتملة بثبوتية الأوراق العراقية الرسمية الصادرة من دولة العراق.

(*)

في الشرق الحزين لا يكتمل الإنسان خارج أنظمة السلوك الجمعي المتوارث. وبطل الرواية يريدُ التخلص من هذه الحالة العائمة التي يكابدها. حالةٌ تؤلمه وتصدّع روحه العراقية المكابرة

وكأنه السياب في قصيدته (غريب على الخليج) حين يصرخ:

(عراق ليس سوى عراق)

(*)

جمالياتُ الرواية: ارتكازها في مهيمنتها بِلا تشظية، فهي لا تمارس (البحثُ عن إلهٍ مجهول) كما فعلها جون في رواية شتاينبك بل تناضل مِن أجل الاعتراف العراقي الرسمي

(*)

لماذا يتشبثُ الولدُ بعراقيته؟ في حين الذين اختاروا المهجر، استبقوا على الأوراق الثبوتية الأجنبية؟

(*)

الولدُ يُريدُ الاستقواءَ بعظمة التاريخ العراقي، لذا لا يوّجه

خطابه الروائي: إلى حكومة. الولد يخاطب الحضارة الرافدانية العظمى ويعنون روايته (سيدي قنصل بابل) إذن المتلقي الأول للخطاب الروائي هو الحضارة الخالدة، فعنوان الرواية بمثابة: علامة مرور: تنبّه الراكب والراجل.

(*)

لم أقرأ لحد يومنا هذا، روايةً تناولت الموضوعة التي تناولها الروائي العراقي البصري نبيل نوري. لذا فأن هكذا رواية

تحاول بأسلوبها الروائي أن توصل رسالةً إلى دعاة الدفاع عن حقوق الإنسان أن يبحثوا عن هكذا قضايا ويعاضدوا أصحابها ليحصلوا على وطن ولو بحجم هويةٍ تحشرُ في جيب قميص أو بنطلون.

البصرة 2021/04/04

محمد رضا مبارك (شاعر وأكاديمي عراقي، رأس القسم الثقافي في الإذاعة والتلفزيون العراقي، والقسم الأدبي في مجلة فنون الأسبوعية، ثم تحريرها)

- وثوق بالنفس وجرأة في التناول يجعلنا امام كاتب جديد ومهم في المستقبل؛ انجز عملا روائيا يليق بكفاحه.

ياسين شامل (روائي وناقد عراقي)

- هذه الروايةُ تستحقُّ القراءةَ، ونحنُ ننتظرُ ما للحكايةِ من بقيةٍ. وهلْ هذهِ البقيةُ ستسيرُ بنسقِ الحدثِ نفسهِ، أمْ يجترحُ الراوي نسقاً آخر من تقنياتِ السردِ.

عبد الكريم السامر (قاص وناشر عراقي)

- يُمكننا القول أن رواية سيدي قنصل بابل يمكن أن تُعد روايات داخل رواية ، فهي من جانب تحمل مأساة مرحلية ومن جانب آخر تحمل مآسي دائمة لا تُريد أن تنتهي أو تتوقف.
إنها حقا رواية تسحب القارئ نحو تُرّهات وارهاصات الأفكار والقوانين العربية البالية والتي ما عادت تصلح في وقتنا هذا.
هي رواية حقائق في ثوبٍ جديد.

عويدي المهدي (زجال وشاعر مغربي، حاصل على الوسام الملكي)

- كتاب يستحق الطبع والنشر كونه يختزل خلف سطوره حكم للاقتداء وعبرة. فعلا نجح الكاتب نبيل بعد ان شدّ بتفاعل المتتبع لكتابه.

عبد السادة البصري (شاعر وإعلامي عراقي)

- انها فعلا السيرة الحقيقية، مبارك لنبيل هذا السفر الانساني الاول، وشكرا له على هذه الرحلة رغم ما فيها من آلام ومعاناة.

كريم لحسن (كاتب مغربي)

رواية جميلة

محمد عبد المحسن (قاص وكاتب عراقي)

- لا تخلو الرواية من إشارات مهمة يمكن التوقف عندها.

التدقيق اللغوي

الأستاذ عويدي مهدي

عبد الإله اعلاهي

سمير بوخليفي

الشّكر خاص الى كل من قدّم الدّعم او ساهم بأيّ شكل من الأشكال في الرواية.

المقدمة

الكتاب هو سيرة ذاتية، تعرّجت شخصيته بين احداث ومواقف غلبت عليها التناقضات وكانت أولها كونه ابن لوطنين وبلا جنسية.
بين سطوره نلمس أن الإنسان صانع الفرق في محيطه، وعوالم من حوله .فسلوك سيء يحول الواحة لصحراء، وسلوك نبيل يخلق بين الرمال أملا.
وسط التفاصيل ستجد سيدي القارئ تشريحاً وتوصيفاً للمجتمع بنظرة الطفل .بعيداً عن المجاملات وترقيع الحقائق فليس هناك ما هو أكبر قيمة من الإنسان نفسه .ولا هدفاً أسمى منه، فلا يمكن بناء وطن بشعب مهدوم .لأن الإنجاز لا يتوقف عند صناعة الصورة بل يتأتى بإعطاء فرصة للحياة وخلق الأمل في النفوس.
الكل يعرف الغابة بقوانينها، وليس بقيمها .فهل نحن سكان الغاب؟ أم سكان الحضارة؟. في الشكل ممكن ان ننخدع لكن كما يقول المثل: "الشيطان يكمن في التفاصيل". التفاصيل هي المتكلم الصامت بين كلمات وحوارات الشخصيات .صمت سيتسلل إلى اعماقك لكي تسمع بإحساسك ما عجزت أمامه الكلمات حتى وهي تصرخ.

نبيل نوري لگَزار موحان

الفصل الأول

ولادة وبداية متعسرة

بين ذراعي بنت صغيرة تسألني إن كُنت عطشان، وأمام صورة شجار بطلاه أمي وزوجة خالي، يبدو على محييهما الانزعاج لكني لا أتذكر جيداً فحوى كلماتهن الملفوظة بصوت مرتفع، الابنة الصغيرة تسألني من جديد عن احتياجي للماء، لكني لم أعرها الاهتمام اللازم، فقد كنت منشغلاً بالأحداث، لم أكن في سني أميز مكانة المحيطين بي ونوع الصلة التي تربطني بهم، لكني كنت اعرف من هي تلك السيدة التي تتقدم نحوي، إنها أمي، أخذتني من بين يدي البنت لتتوجه بي إلى مكان ما، لا اعرفه لكني حتما سأشعر بالأمان فيه مادامت هي معي. انها أقدم ذكرى لي.

كانت أمي تتركني عند الأقارب وغير الأقارب لتتمكن من الذهاب للعمل كخادمة في البيوت، وقد قضيت وقتاً ليس بالقصير بين بيت خالتي وبيت خالي لكن للأسف لا احتفظ بخزين كاف من الذكريات لأحكي تفاصيل المرحلة، لكن ما هو أكيد ان بيت خالي يتواجد قرب مدينة المحمدية ومنزل خالتي بمدينة سلا، هما بيتان من الصفيح.

بعد تلك الحادثة اضطرت أمي إلى إحضاري معها إلى الدار البيضاء، والتنقل معها إلى كل البيوت التي تشتغل فيها كخادمة، وكانت سرعان ما تفقد عملها بسببي، فأرباب البيوت كان يزعجهم مكوث ابن الخادمة تحت سقفهم، بالإضافة إلى صعوبة قيامها بواجباتها المهنية والاعتناء بي في نفس الوقت.

إحدى صديقاتها التي كانت تعاني من نفس المشكل نصحتها بامرأة عجوز تدعى" الأم حسنة ."المرأة أم لأربعة أبناء، تتخذ من استضافتها للصغار على شاكلتي مصدرا للدخل، لا أتذكر الكثير عن ذلك المكان، سوى أنه بيت في المدينة العتيقة، تكتري فيه "الأم حسنة" غرفة تجمعها مع زوجها وابنتيها وولديها .ذلك البيت العتيق مقسوم، به عدة غرف تتوسطها كُوَّةٌ مربعة للتهوية، وكنت كلما أطللت من فوقها، شاهدت ظلمة قاتمة تكفي لأنسج آنذاك في مخيلتي الصغيرة أصنافا من الأساطير حولها، مثل وجود عفاريت او انها هوة بدون قعر، ففي تلك المرحلة من طفولتي كان يكفي ان

أتخيل شيئا حتى أتعامل معه على انه موجود فبالنسبة لي طالما استطعت تخيله، إذن لا شيء يمنعه ان يكون. لكن الأكيد ان أيامي عند" الأم حسنة "التي قضيتها بين الغرفة والباحة لم تكن ممتعة، ومع قليل من الحظ كنت أحظى بلحظات من الفرجة عندما يمارس أحد أولادها الرياضة بآلته البدائية، أجزاؤها تتكون من عمود حديدي يتوسط دلوين متوازيين للصباغة مملوئين بالإسمنت. لكن الأكثر إثارة بالنسبة لي، هو عندما يضع أحدهم منشفة بيضاء فوق الأرض لتمشيط رأسه فوقها، فقد كانت الحياة تعج مباشرة فوق المنشفة البيضاء، بمخلوقات صغيرة تتحرك هنا وهناك، لكن أمي سرعان ما نقلتني عند سيدة أخرى اسمها "الأم محجوبة". بيتها هو الآخر في المدينة العتيقة، لكن الظروف هناك أحسن بكثير مما كان عليه الحال عند" الأم حسنة"، فهي تمتلك طابقا خاصا بالإضافة إلى السطح، أما الطابق الأول فهو مؤجر لإحدى الأسر.

"الأم محجوبة "سيدة مسنة نوعا ما و أم لثلاثة أولاد وبنت، ابنها البكر و ابنتها الوحيدة هاجرا إلى أمريكا، وبقي معها " نور الدين " و"رضوان"، و زوجها" بابا حمد."

أيامي عند" الأم محجوبة "كانت أكثر متعة فلم أكن النزيل الوحيد، اذ يتقاسم معي الإقامة عندها ولد إسمه" المهدي "هو الآخر شبيهي في الوضعية .كنت اقضي أيامي بين اللعب مع" المهدي "و تعلم لعبة الورق مع" بابا حمد"، لكني كنت أفضل أكثر رفقة" بابا حمد "لكثرة القصص التي يحكيها لي، فكلما استيقظت صباحاً ذهبت للبحث عنه في غرفته الموجودة في آخر زاوية للمنزل، التي عادة ما أجده فيها يتناول حساءه الصباحي في إناء بلاستيكي اخضر اللون، آنذاك كان فطوري لا يتعدى الخبز و الشاي، لكن" بابا حمد "كان يبدو عليه الاستمتاع بفطوره اكثر مني ،لذا لم أكن أتردد عندما يعرض عليّ تذوق حسائه اللذيذ، فاغتنم الفرصة لتفحص أغراضه بنظراتي الفضولية، ومنها السجادة معلّقة بإحكام على أحد جدران غرفته، يغلب عليها اللون الأحمر، يتوسّطها منظر لمصارع الثيران الاسباني و

هو يلاعب بقطعة قماش كبيرة، ثوراً أسود ذا بنية عضلية هائلة. بعد لعب الورق معه يبدأ الملل يتسرب إليَ فاستغني عن رفقته لأبحث عن" المهدي "بين غرف المنزل والسطح، في بعض الأحيان أنزل إلى الزقاق لأجده يلعب في جوار البيت، وفي حالة الفشل اصعد إلى المنزل إلى حين ظهوره، وطبعاً كعادته لا يمضي الكثير من الوقت حتى أجده يستعطف" الأم محجوبة "من اجل قطعة خبز .

في الحقيقة مجهوده للحصول على الخبز غير مفهوم بالنسبة لي لأن قطعة الخبز التي يحصل عليها لا تستحق كل هذا الاستعطاف ولا تغير من واقع الجوع شيئاً.

"الأم محجوبة "كانت تقفل بالمفتاح صالة استقبال الضيوف دون غرفتين، حيث الأثاث الذي لا يكفي للعبث به لذا نجد أنفسنا مضطرين للصعود إلى السطح، هناك الوضع ممتع نوعاً ما اذ تنقسم أنشطتنا بين اللعب مع سلحفاة و مشاهدتها تأكل الطماطم و الخس و تتبول سائلا ابيض، و بين اللعب بدود صغير مليء بالشعيرات الرقيقة، او التفرج على كلب رضوان الأبيض، المبعثرة أمامه رؤوس الدجاج و سيقانها التي تمثل وجبته الروتينية . ومنظره كان يوحي بالتعاسة، وكم كنت أتخيل نفسي في مكانه، محصور في زاوية ومربوط العنق بسلسة حديدية، مع وجبة رئيسية ميؤوس منها.

الوقت يتسرب بسرعة، فوقت الغداء يحين بصعود" الأم محجوبة " ومعها طبق مرق وخبز، كنا عادة ما نتناوله على السطح برفقة أصدقائنا الحيوانات، ربما تجنبا للأوساخ التي نخلفها .لم أكن لاهتم بالوضع على كل حال فنحن نحصل على امتيازات تتعدى ما يحصل عليه صديقنا الكلب التعيس.

يوم الأحد أفضل أيامي عند" الأم محجوبة"، لأنه يوم زيارة أمي وبالتالي وقت إطلاق سراحي أنا الأخر، انتظرها بفارغ الصبر وعيني على الباب الذي ستطرقه في أية لحظة .إنها هي، كم أنا سعيد، بعد أن تتبادل الكلام مع" الأم محجوبة "عن الكيفية التي سارت بها الأمور معي .

يحين وقت دفعها للثمانين درهما، أجرة الإقامة الأسبوعية، كل هذه الأحداث تمر وأنا ملتصق بخصر أمي .ها هي تمسك يدي وتأخذني معها .

سنمضي اليوم في التنزه مع إمكانية زيارة إحدى صديقاتها، لألعب مع أولادها بينما تتبادلان أطراف الحديث فيما بينهما .كعادة كل يوم أحد سنتوجه إلى حديقة الألعاب" ياسمينة"، فهي قبلتنا الأولى، قبل الدخول نتوقف أمام بائع حلوى القطن الذي أستمتع بمشاهدة عرضه السحري وهو يعد لي قطعتي، إذ يدخل قصبة صغيرة في إنائه العجيب، ليخرجها ملتفة بكرة من القطن الحلو، لأغوص بفمي وسطها، كمن يأكل السّراب، تشتري أمي التذاكر لنتمكن من دخول جنة الألعاب؛ كانت لحظات سماوية. كالعادة تسمح لي أمي بأن اركب لعبة ولمرة واحدة فقط، فليس بإمكاني تعدي الميزانية المرصودة لي وهي لا تتعدى درهما واحدا، وبما انه ليس بإمكاني الاختيار إلا مرة واحدة كنت أتأنى بكل حرص حتى تتحول بهجتي إلى ندم ينغص عليّ ما تبقى من اليوم .

أتوقف عند لعبة الزوارق الكهربائية الغير مسموح لي بها، لثمنها الذي يشكل ضعف الميزانية، لكن لا بأس من مشاهدة الأطفال يمرحون، فالعين بصيرة واليد القصيرة كما يقال، بعدما قضّيت ما يكفي من حصص أحلام اليقظة وإتعاب حواسي بالفرجة يحين وقت صعودي للمنصة لأختار لعبة الحلزونة، أركبها لتنطلق على سكتها الحديدية، المحصورة في مسار دائري يرجع بي دائما إلى نقطة الانطلاق، مع شمولها على مقود وهمي لا طائل من تحريكه، انتهت الرحلة على ظهر الحلزونة، انزل مكتئبا، اعتقد أن مسير اللعبة غشني في التوقيت. لكن التشكيك في نزاهته لم يكن ليغير من حقيقة ميزانيتي التي لا تسمح لي باللعب في العاب تمكنني من التحكم بمسارها.

بعد ما صرفت الدرهم نتوجه إلى أحد الكراسي للاستراحة، لنقصد بعدها محطتنا الأخيرة، وهو قفص النعامة، فهي لا تتردد في الدفع بمنقارها خارج القفص لالتقاط ما يقدمه لها الزوار، أما أنا فأكتفي

بمخادعتها، فلم يكن عندي ما أقدمه لها سوى قشور بذور زهرة عباد الشمس التي التقطها من الأرض، بعد عدة مناورات تنصرف عني لتهتم بزائر آخر.

في طريق العودة نمر بالساقية العجيبة، إنها تنتصب على الأرض بلونها الأخضر تعلوها مضخة اسطوانية كلما أدرتها يبدأ الماء في الصبيب، انحني لأشرب لكن الماء يتوقف، وينطلق من جديد ما أن تدير أمي المضخة عوضا عني، وأنا ألهو يبدأ الناس بالتجمع فأنسحب مع أمي لأترك خلفي مشهدا للمرتادين يتناوبون في إدارة الاسطوانة حتى يشربوا بدورهم، فيبدوا أن تلك الساقية العجيبة تلخص للحياة التي تخلق دائماً فرصا لنحتاج فيها لبعضنا.

ونحن في الطريق أمطر أمي بأسئلة كثيرة عن كل ما يلفت انتباهي، لكن معظم أجوبتها كانت تقتصر على عبارة" عندما تكبر ستفهم."

نتوقف بإحدى الحدائق لتناول الطعام الذي أحضرته من عملها حتى يتسنى لنا أن ننطلق إلى وجهتنا المقبلة و التي أجهلها، لكن التشويق ينتهي أمام باب احد البيوت التي تقطنها إحدى صديقاتها، بعد تبادل التحية تضيّفنا السيدة بالشاي، هذه المرة لن العب مع الأطفال فيظهر على السيدة أنها تعيش وحيدة، لتبقى وسيلة تسليتي الوحيدة هي الإصغاء لحوارهما الذي لا أفهم منه شيئاً، سوى أنه لفتت انتباهي كلمة شتم تفوهت بها أمي و هي منفعلة في التحدث عن آخر، بعد انهاء الزيارة نودع السيدة، لم يمض على مغادرتنا إياها سوى خطوات معدودة حتى اذكر أمي أنها تلفظت بمصطلحات قبيحة، فتجيبني بالاعتذار. فأمي كانت تعلمني دائماً الصدق وتوبخني بالضرب إذا تفوهت بكلمة نابية، لذلك لا أفوت الفرصة في اقتناص هفواتها.

-النهاية- هذا ما فهمته من وقوفنا أمام منزل" الأم محجوبة "من جديد، أتسلل بين الفجوة التي تفصل" الأم محجوبة "وجانب الباب، قبل أن تقفله وهي تعد أمي بالاعتناء بي على أحسن وجه.

مضت أيام ليست بالقليلة في بيت" الأم محجوبة"، قضيتها بين النزهة الأسبوعية واللعب مع أفراد العائلة والذهاب إلى البقال، فصرت متأقلماً مع بيئة الحي وعارف بأزقته؛ لكن زيارة أمي هذه المرة لم تكن طبيعية، لأنها تتوسط الأسبوع، علمت بعد ذلك ان أرباب عملها سيقضون العطلة في ضيعتهم، وقد استأذنتهم لتحضرني معها.
لكن" الأم محجوبة "لم يظهر على تقاسيم وجهها الرضا، بعد خروجنا من المنزل بادرت بالسؤال:
"ما بها الأم محجوبة ؟؟ فأجابتني " لم يرقها أخذك برفقي لأنها بنت حسابات على الثمانين درهم الأسبوعية التي ادفعها لها."
وصلنا إلى مقر العمل، فعليّ المبيت معها لان العائلة ستنطلق إلى الضيعة في الصباح الباكر، قضيت الوقت في المطبخ، لأني بطيء التأقلم في الأماكن الجديدة، وعندما حان وقت النوم افترشت في أحد زوايا المطبخ حيث نوم معظم الخادمات، لذا فالأمر لن يختلف عندما يتعلق بابن الخادمة؛ في الليل أيقظتني الصراصير فقد كانت تتسلق كل جسمي، وبعضها كان يشق طريقه نحو فمي، وسط الظلمة أنادي أمي، التي لا تتأخر عن إشعال الضوء والاطمئنان عليّ، لترجع بعدها للنوم من جديد.
صباحاَ انطلقنا كما هو مخطط، متسليا بالاستماع إلى دردشة أفراد العائلة المشتعلة، ومشاهدة رقبة الأب الرائد وهو يسوق السيارة، مع بعض المشاهد الطبيعية التي اختلس النظر إليها من النافذة .
بعد مضي الوقت بدأت اسأم من تكرار المشهد، فلم أجد ما اخفف به عن نفسي سوى الأمل الذي أغذيه بسؤال أمي" هل اقتربنا"، لتجيبني هي الأخرى" نعم."
وأخيرا وصلنا، هذا ما فهمته عندما توقفت السيارة أمام باب حديدي كبير، انه يتحرك منفتحاً الى الداخل، لتنطلق السيارة من جديد، فتستقر أمام بناية لا تختلف كثيرا عن المنزل الذي انطلقنا منه سوى ان الأول تجاوره البنايات والأرصفة والتاني بين الأشجار والأراضي الزراعية .

بعد نزولي من السيارة بقيت ملتصقاً بأمي وهي تنقل الحقائب وتتفقد المكان، لتحدد تسلسل المهام والأشغال التي ستقوم بها، وهي تشجعني على الانصراف للعب مع الأطفال، لكن تشجيعها سرعان ما تحول لأمر، فخرجت لأجدهم يلعبون في الساحة الأمامية، اكتفيت بالتفرج عليهم، تاركاً للوقت ان يعمل عمله، لكن هذه المرة لم يأخذ الأمر وقتاً طويلا حتى بدأت اندمج معهم، لاعبا راكضا في كل الاتجاهات؛ بعد مضي بضعة أيام تقوت صداقتي مع إحدى بناتهم التي تقربني في السن، فصرت أتقاسم أنشطتي اليومية معها.

أحدهم يحتاج البيض في المطبخ، تطوعنا لإحضاره أنا و هي، عند وصولنا لمكان تجميع البيض، عرضت علي تقاسم الحمولة لنتمكن من جلب الكمية المطلوبة، فوافقت على الفور لكن بمجرد ما تضع بيضتين في يدي و تدخل لجلب المزيد حتى أوقعهما فتنكسران، بعدما ملت من تكرار المحاولة قررت التطوع لإكمال المهمة بمفردها، لنعود بعدها أدراجنا، بعد دخول المطبخ لتسليم البيض أخذتني معها إلى إحدى الغرف، كانت غرفة كباقي الغرف لكن على مائدتها توجد آلة عجيبة بيضاء بمفاتيح سوداء بآلية معقدة يضفي عليها نوعاً من الهيبة، بدأت تضغط على مفاتيحها التي تصدر إيقاعات جميلة و مميزة، سألتها عن طبيعة هذه الآلة ؟؟ فأجابتني انها آلة للكتابة، أخذت قطعة ورق من جانبها لتضعها بين اذرع الآلة السحرية، فبدأت تلعب بالطقطقة ودفع ذراعها يمنة و يسرة، لكن هذه المرة لم أشاركها اللعب رغم أني أحب العبث بأي شيء يصادفني ان لم يكن بدافع اللهو فقد يكون بدافع الفضول، انصرفت من الغرفة تاركاً اياها خلفي، لأخبر احد الكبار بما تفعله، لكن احدهم لم يكترث، خرجت للبحث عن باقي الاطفال لكن لم اجدهم في اماكن لعبهم المعتادة، فأشار عليّ احدهم بالبحث في داخل المنزل، وفعلا وجدتهم في الصالة الرئيسة ملتفين حول الاب بينما يمسك في يده سيجارة كبيرة ذات لون بني، اثارني كثيراً منظر الدخان الخارج من فمه، فسألته إذا كان بإمكاني ان افعل مثله ؟؟ فأجابني بمدها لي

بوجه بشوش، بعدما تناولتها منه وضعتها في فمي وبدأت النفخ فيها لكن بدون جدوى فلم أتمكن من إخراج الدخان من فمي، بينما الكل بمن فيهم الأب يسخرون من الموقف، بعد محاولاتي اليائسة أرجعت له السيجارة، فبدأ أولاده يهتفون عليه مادّين ايديهم ليحاولوا بدورهم، لكن ضحكاته تحولت لتجهُّم ممانع، مما خلق في داخلي نوعا من الغبطة لأني ولأول مرة أحظى كابن خادمة بمعاملة تفضيلية.

أمشي إلى جانب أمي متقاسمين لحمولة متكونة من دلو ازرق صغير وحصيرة تكلفت هي بحملها، تداعب وجهي أنامل شمس الصباح الدافئة، بينما أتفحص بنايات هذا الحي الذي لا يبعد كثيرا عن بيت "الأم محجوبة"، سألت أمي عن اسمه فأجابتني" :بوطويل"

_ ولماذا اسمه" بوطويل"؟

_لأنه طويل.

انعطفنا على اليسار نحو الزقاق .لندخل بعدها منزلا، بالطابق الثاني، أمالت امي الحصيرة على الحائط، لتخرج المفاتيح من حقيبتها، بعد فتح الباب، طلبت مني أمي الدخول، كنت متحمساً جداً لاكتشاف المكان، إنها غرفة جميلة، ذات نافذة تطل على الزقاق، مساحتها لا تتجاوز الأربعة أمتار مربعة، أدخلت بعدها أمي الحصيرة لتفرشها على الأرض مخاطبة إياي ان الغرفة هي مسكننا الجديد وقد اكترتها بمئتي درهم للشهر، بعدها خرجت إلى الفناء لاستطلع المكان، كان للفناء كُوَّةٌ تتوسطه كمنزل" الأم حسنة"، لكن هذه المرة كنت أشاهد الطابق السفلي مضاء و يعج بحركة جيراننا الجدد، أما الفناء فكان محاطا بعدة غرف تكبر غرفتنا لكن ساكنيها لم يكن يظهر على محياهم ملامح مرحبة.

نزلت إلى الزقاق لألعب كما أشارت عليّ أمي، فاكتفيت بالاتكاء على حائط المنزل، ناظراً إلى الأطفال من بعيد وهم يلعبون، انتظر دعوة

لالتحق بهم؛ دعوة لم تأتي يوماً، مكتفيا بترك المبادرة بين يدي الصدف.
الآن صارت لنا غرفتنا الخاصة، أصبح لأمي إمكانية العمل نهارا والرجوع إلى الغرفة مساء، فلم يمض على كرائها الكثير من الوقت، حتى نقلتني من عند" الأم محجوبة "إلى أحد الكتاتيب، لم يكن دافعها تعلمي القران فهي ليست متدينة لهذا الحد، لكن يبدو ان الثمانين درهم صارت تثقل كاهلها بسبب ثمن كراء الغرفة وأدائها لواجبات الماء والكهرباء.
نغادر صباحاً وقبلتنا الكُتَّاب، حاملا قارورة صغيرة مليئة بعصير الجزر والليمون، غذائي لهذا اليوم .بعد ان تحيي أمي الفقيه، تسلمني لعهدته متوسلة إياه ان يعتني بي جيداً، مانحة إياه بعض البقشيش، الفقيه بدوره يجلسني إلى جانبه مع بعض الأولاد فقد كان الكتّاب مقسماً إلى ثلاث طبقات اجتماعية، النخبة وهم الأطفال على شاكلتي من الذين يضعهم إلى جانبه في المقدمة لأنه يحصل على بقشيشهم الإضافي و قدماء المحاربين الذي كانوا يأخذون من الجانب الأيمن الأمامي موقعاً لهم، يميزهم امتلاكهم لألواح خشبية مدونة بالحبر الأسود التي تشير إلى تعلمهم للكتابة بالإضافة إلى كبر سنهم مما يجعلهم يلعبون دور القوات المساعدة للفقيه لكي يتمكن من ضبط الكتّاب وتثبيت احدهم عندما يريد معاقبته، أما المجموعة الأخيرة فهي الغالبية المهمشة التي تزدحم كالديدان داخل الكتّاب.
ولعدم توفره على الصرف الصحي نأخذ الإذن لكي نقضي حاجتنا الواحد تلو الآخر في مجاري تصريف مياه الأمطار المجاورة لنا .
بمجرد انصراف الفقيه إلى مكان ما تعم الفوضى، فاغتنم الفرصة لزيارة قدماء المحاربين، بعد الجلوس بجوارهم قليلاً أراقب أسلوبهم الفريد في التسلية، فهم يصطادون الذباب ويغرقوه بالحبر فوق اللوح، بدوري أحاول الاندماج مع لعبهم باصطياد ذبابة من اللاتي تحطن فوق جسمي، لكن بدون جدوى، فالذبابة سريعة البديهة،

لكن مع بضع إرشادات تعلمت التقنية التي نجحت بها في اصطياد إحداهن، لكني لا أتوفر على حبر و لوح لإغراقها فيه، مكتفيا برفع يدي التي بداخلها الذبابة إلى أذني حتى أسمع أزيز جناحيها، ولكن بمجرد ما حاولت تحويلها من وسط كفي نحو احد أصابعي لمشاهدتها عن قرب حتى انفلتت محلقة بعيداً، فرجعت إلى مكاني قبل قدوم الفقيه، لأني غير مستعد للمرور على احد آلاته التأديبية التي كان أشهرها" الفلاقة"، و هي عبارة عن خشبة سميكة مربوط على حافتيها قنب غليظ، توضع قدمي المذنب بين القنب والخشبة و بعدها تلف دائرياً حتى تنحصر القدمان ليتكلف بعدها اثنان من قدماء المحاربين برفعه فوق مستوى الأرض، فتصبح رجله إلى الأعلى و رأسه إلى لأسفل، بينما الفقيه ينهال على بطن القدمين ضرباً بالعصا .

بعد أن ينتهي دوام أمي في المساء، تمر بالكتّاب الذي كثيراً ما أكون أخر مغادريه، هذا ان لم يضطر الفقيه لأخذي معه إلى منزله في انتظار قدومها، والذي يستقبلها كالعادة بالعبوس والتذمر طالباً منها عدم التأخر من جديد.

يبدو على أمي الاستعجال نوعاً ما، فقد أخبرتني ان أرباب عملها طلبوا منها البقاء ليلاً للاعتناء بأطفالهم، بينما ينصرفون لقضاء أمسية ليلية بالخارج، وطبعاً ليس بإمكان أمي الاعتراض، لكنها أخذت الإذن للخروج بعض الوقت لترتيب أموري؛ بعد معرفتي بالموضوع سألتها هل سأبيت في الغرفة لوحدي؟؟ فأكدت لي ذلك.

الفصل الثاني

إذا أردت أن تصبح قوياً تعلم أن تستمتع بكونك وحيداً

عند وصولنا لغرفتنا وضعت لي طعامي في طبق، مع دلو صباغة مستعمل في الزاوية لقضاء حاجتي فيه، بعدها أقفلت الباب مودعة إياي، طالبة مني ان أتصرف جيداً في غيابها.

بعد تناول العشاء، استلقيت في فراشي تاركاً المصباح مناراً طول الليل فلم أجرؤ على إطفائه حتى وهو مشتعل كنت أخاف من إقفال جفنتي، لكي أتجنب مشاهدة منظر الظلمة التي توحي لي بكثير من الأفكار المرعبة والخيالات المخيفة، لاستسلم بعدها إلى النوم، مهربي الوحيد من الأشباح التي ملأت فكري.

في الصباح استيقظت على صوت المفتاح يدير قفل الباب، مسدلاً الستار على ليلة من الرعب، لا تكاد أمي تخطو للداخل حتى ارتمي عليها، لتبادلني هي الأخرى بالعناق والتقبيل، سائلة إياي ان كان كل شيء على ما يرام؟؟ ذهبت بعدها لإفراغ الدلو في المرحاض فاغتنم الفرصة للبحث في حقيبتها فالفضول يمنعني من انتظارها للكشف

عما أحضرته لي معها، اخرج قطعة اللحم والموزة لكني أتأنى في أكلها إلى ان ترجع لكي أتأكد ان كانت مخصصة لي، عند عودتها تبدأ توبيخي لأني فتحت حقيبتها من غير إذن، لتؤكد لي بعدها ان الأكل هو من أجلى، فعلي تناوله بسرعة لكي نتوجه إلى الكتّاب لتتمكن من العودة لعملها.

لكن الاختبارات على شاكلة الليلة السابقة لن تنتهي عند هذا الحد، فأمي مضطرة للعمل يوم الأحد، لان أرباب عملها يستقبلون ضيوفا وعلى أمي القدوم للقيام بالتحضيرات، بالنسبة لي يمكن ان أقول وداعاً للنزهة، فسأكتفي بالحبس الانفرادي، لكن على الأقل هذه المرة لن أخشى من العفاريت التي تتخذ الليل وقتاً لنشاطاتها.

تحاول أمي إيقاظي لكن بدون فائدة فتلجأ إلى رشي بالماء، فهي الطريقة الوحيدة التي تميل بها موازين القوة لصالحها، لأترك الفراش متوجها للمرحاض لغسل وجهي، هذه المرة لن اضطر إلى انتظار دوري فيظهر ان لا أحد بداخلها، بعدها أعود لتناول فطوري بينما ترتب أمي أمرها للانصراف إلى عملها، وهي تحذرني من افتعال المشاكل، لكي لا احرم من المكافأة ولتجنب العقاب .بعد التأكد ان كل شيء على ما يرام تقبلني وتنصرف تاركة الباب وراءها مقفل.

فابدأ في اللعب، لتتحول تلقائياً ألعابي إلى أصدقاء وهميين يخففون من وحدتي نوعاً ما، لكن يبقى العملي هو إمساكي بإحدى الحشرات للعب بها فهي لا تحتاج لمجهود فكري حتى تبعث فيها مخيلتي الحياة، ما ان يمضي الوقت حتى يبدأ الملل في السيطرة على مشاعري مع إحساس عميق باختناق داخلي، يصبح معه مكوثي في الغرفة أمراً غير ممكن، أبدا في تكسير لعبي وضرب الباب بها محاولاً بكل الوسائل فتحه لكن دون جدوى، ما ان سمع الجيران صراخي حتى بدأوا في التجمهر خلف الباب، محاولين فتحه بما تيسر عندهم من مفاتيح شخصية لكن لا فائدة، لاستسلم للنوم بعدما خارت قواي من جراء الصراخ وضرب الباب.

بعد رجوع أمي مساءً لم يظهر على ملامحها التفاجؤ عند دخولها إلى الغرفة المبعثرة، لكن صمتها كان كاف للتعبير على عدم رضاها، حاولت خلق الأعذار والمواضيع لاستدرجها للكلام معي، فعدم مخاطبتها لي كان امراً لا يبعث في نفسي الارتياح.
أما أصحاب المنزل فاغتنموا الفرصة لتقديم شكاية للسلطات التي أحالت بدورها الموضوع على القضاء، فبفعلتهم الكيدية يمارسون على أمي نوعاً من الضغط والتخويف ليجبروها على رفع الإيجار او إفراغ الغرفة.
بعد مرور أيام ليست بالقليلة، وجدت أمي نفسها أمام القاضي، بعدما استدعتها المحكمة لتوضيح موقفها .
القاضي بدوره طلب منها الإدلاء بشهادة الولادة الخاص بي ليتأكد من أنها الأم الفعلية، أثناء تفحصه للوثيقة سألها :
-أبوه ليس مغربي كما أرى...أين والده الآن ؟ "
-انه في العراق سيدي القاضي
-هل يرسل لكِ نفقة ابنه؟؟
-لا سيدي ليس لنا أي اتصال معه، وهو لا يبالي بمصير ابنه..
بعدها طرح عليها سؤالا إثر الشكاية المقدمة، فبادرته بالقول:
-سيدي القاضي، أنا لا اقفل على ابني الغرفة للخروج إلى الملاهي او التسلية، بل اقصد لقمة العيش، وإذا كان من يشتكي عليّ صادقاً في نواياه ويكترث فعلاً لطفلي فلماذا لا يطلب مني الاحتفاظ به إلى ان أعود من عملي ؟؟
بعد برهة من الصمت رفع القاضي رأسه نحوها وطلب منها الانصراف.
تمنيت لو كانت آخر المشاكل التي تتعرض لها أمي، لكن إصرار المالكين على افتعال المشاكل، و العبث بصفو حياتنا لم يتوقف عند هذه المحاولة، بل بادروا في استخدام ابنهم المكتري لأحد الغرف المجاورة لنا لمضايقتنا و تطورت تلك المضايقات إلى مشاحنات و مشادات كلامية انتهت إلى التطاول على أمي جسدياً و سحبها إلى

غرفتهم مقيمين عليها شهود زور ليتهموها بالتهجم عليهم و بالتالي هضم حقوقها في رد اعتبارها من أي جهة قضائية، في تلك الأثناء كنت أشاهد ما يحدث و أنا ابكي، لم يكن في وسعي فعل شيء سوى الارتكان إلى حافة الباب و إمطار الدموع .

راجعت مع أمي مؤسسة" أرض البشر "الخيرية، المتخصصة في دعم الأمهات اللاتي ليس لهن أزواج، اما اسمها المتداول وسط العامة فهو" الراهبات "نسبة للكنيسة الكاثوليكية المجاورة لبنايتها.
اللوحة التعريفية هي أكثر ما لفت انتباهي وأنا اعبر المدخل الرئيسي، كان على أحد جوانبها شيء مكتوب، اما في الجانب الأخر فكان رسم لوجه إنسان باللون الأبيض والأسود، النصف الأيمن من الوجه ملون بالأبيض وملامحه مرسومة بالأسود، فيما النصف الأيسر لونه ابيض وملامحه سوداء، كانت تلك اللوحة أمامي كاللغز .يزيد تساؤلاتي عدم قدرتي على قراءة المكتوب على الجانب الآخر.
يستقبلنا الحارس و يطلب من أمي الانتظار إلى ان يخبر احد الموظفين بحضورها، امضي وقت الانتظار في تأمل الرسومات والصور على الحائط، التي تتكرر عليها ابتسامات الأطفال الجامدة و الخالدة بين تلك الجدران؛ لا يكاد يمضي الكثير من الوقت حتى اسمع ايقاع خطوات تقترب منا، انه الحارس متجه نحونا يطلب من أمي ان تتبعه إلى الداخل، نسلك ممرا طويلا على جانبيه غرف كثيرة مقفلة؛ بعبوري من أمام باب مفتوح مددت راسي إلى الداخل أشاهد أسرّة صغيرة بها أطفال رضع تحيط بهم سيدات يرتدين سترات بيضاء، لحظة مروري لم تكن تكفي لإشباع فضولي من التفاصيل، فيد أمي الممسكة بي تسحبني كلما حاولت التوقف او الإبطاء للنظر، بعدها ينتهي الممر لتحتضننا ساحة كبيرة مفتوحة على السماء، تترامى على جوانبها قاعات مفتوحة الأبواب، لأنظر للواحدة تلوى الأخرى، مبتدئاً بالمطبخ يليه قاعتان مليئتان بالأطفال في سني، ملتفين حول موائد مستديرة يمارسون أعمالاً، بعدها مباشرة نصل

إلى حديقة بها أراجيح و لعب عديدة، إلى جانبها الأيسر مكتب الإدارة.
يسلمنا الحارس إلى إحدى الموظفات وينصرف عائداً أدراجه، بعد ان طلبت منا السيدة الجلوس يبدأ حوار بينها وبين أمي، أما أنا فاكتفي باختلاس النظر إلى الحديقة غير آبه بما يدور بينهم من كلام، بينما أتفحص المكان بعناية يلفت انتباهي حركة في أحد الأجزاء، إنها سلحفاة كبيرة، لم يسبق لي ان شاهدت مثيلاً لها، فأنا متعود فقط على سلحفاة" الأم محجوبة "التي كنت اعتقد انها الأضخم في العالم .
فتقاطع أمي تأملي بطلبها مني شكر السيدة وبالفعل شكرتها دون ان اعرف السبب، أما أمي فيبدو عليها السعادة وتمشي بخطوات سريعة، فلم أكد أسالها عن الأمر حتى قالت لي:
-لقد وافقوا على استضافتك في الروض، ستبدأ الدراسة هنا من الغد، ،
-ألن اذهب إلى الكتّاب ؟؟
-لا ستدرس هنا طول النهار وسآتي لأخذك مساءً.
اليوم أول أيامي في الروض، توقظني أمي مبكراً، لنكون هناك في الوقت المحدد، أثناء حديثي معها تتعثر الكلمات في فمي وتنحصر، فتبدأ أمي في ضربي لكي انطقها بطريقة سليمة، لكن ضرباتها لا تفيد شيئاً ولا إلحاحها فالموضوع خارج عن السيطرة، هكذا هو الحال منذ مدة، لكن أمي لم تتقبل فكرة التعايش مع المشكلة الجديدة فهي تفضل سماعي أترتر بدون أي عائق.
بمجرد خروجنا من المدينة العتيقة ننعطف إلى شارع مستقيم يأخذك مباشرة إلى" أرض البشر "التي يتواجد مدخلها على الجانب الأيسر منه، لكن الطريق طويل نوعاً ما بالمقارنة مع طريق الكتّاب، أما البيوت المتواجدة على جوانبه فهي متعددة الطوابق و حديثة بالإضافة إلى تميزها بحدائقها الأمامية، المحاطة بحائط من الطوب الأحمر الذي لا يعلو كثيراً على الأرض، اقضي معظم الطريق امشي

بقدم خلف أخرى فوق حافة تلك الحدائق، بعدها نقابل على الطريق صنفاً آخر من المعمار على شاكلة فلل، تنبح الكلاب بداخلها كلما مررنا بالقرب من أبوابها، التفت إلى الوراء ناظراً إلى ما خلفته ورائي من مبان، استطيع الآن التحديق إلى الشرفات دون رفع راسي، النظر للوراء يخلف في مشاعري إحساس النظر في الذكريات، كل شيء واضح الآن من هنا، لم تعد ضخمة كما كانت لدى مروري بجانبها، لا اعرف ربما يأتي يوم في حياتي انظر إلى حاضري في ذكرياتي بوضوح، لأني لا اعرف أين أنا وسط كل هذه الحركة، ربما تكون أمي صادقة وهي تقول": حين تكبر ستفهم يا ولدي ."ربما المتعسر الآن سيصبح غدا في المتناول.

وصلنا أخيرا إلى الباب الأبيض، أول مستقبلينا كالعادة ذلك الوجه المقسم على اللونين، فاختلاف ألوانه لم يمنعه من ان يكون وجها لشخص واحد، ندخل إلى الداخل لنجد الحارس على كرسيه كالمعتاد، يسال أمي عن غرضها من الزيارة ؟؟ فتخبره انه أول أيامي كتلميذ، يطلب منها اسمي ليتوجه مهرولاً إلى الداخل، بعد هنيهة إيقاعات أقدامه تعلن قدومه نحونا من جديد، يشير علينا بالقدوم معه، لنجد نفسنا بعد عبور الممر أمام قاعة من القاعات المطلة على الساحة الرئيسية، تستقبلنا المعلمة وتطلب مني الدخول بينما تنصرف أمي عائدة أدراجها.

مكان الألعاب كان نقطة بدايتي، فلم اعر الاهتمام لطلب المعلمة لي بالجلوس إلى الطاولة مع الأطفال، فكانت ردة فعلها ان طلبت من أحدهم الالتحاق بي ليشاركني اللعب، فقد جنبتها ساعات من البكاء والصراخ الذي يطربها به عادة الأطفال لدى فراقهم أمهاتهم لأول مرة، بعد وقت قضيته بين الألعاب طلبت منا المعلمة الانصراف للعب في الحديقة .أنا جدّ سعيد، فأخيراً سأستطلع المكان عن قرب بعدما اكتفيت بالنظر إليه من باب الإدارة، أول مكان قصدته كان الأرجوحة أتناوب عليها مع باقي الأولاد، واجري من هنا وهناك وأتعرف على أصدقائي الجدد ونلتحم مع أطفال القاعة المجاورة

المخصصة لأولاد يكبرونا سناً .أتقدم نحو سياج لم أشاهده المرة السابقة عند قدومنا، فقد كان يأخذ من حدود البناية الخلفية مكانا له، فأطل بين الفتحات لأشاهد مسبحا صغير لونه كلون السماء، تطفو على مياهه أوراق يابسة و حشرات ضخمة، فارجع من جديد نحو باقي الأطفال، أما السلاحف فقد كانت تبدو مسنة وحكيمة، ومنظرها يضفي عليها نوعا من الوقار، من اجل ذلك لم أتطاول عليها باللعب كما افعل مع سلحفاة" الأم محجوبة."

تنادي علينا المعلمة لدخول القاعة لتناول الغداء، نلتف حول الموائد منتظرين دورنا ليمتلئ صحن كل واحد منا، فنتناوله بغبطة وسط جو من الصخب والترترة.

بعدها تنصرف المعلمات، بينما نقضي حصة القيلولة التي تمتد لساعتين، لكني اكتفي بقضائها ممتداً على ظهري انظر إلى السقف فلم يسبق لجفنتي ان استسلمت يوماً للنوم في مثل هذا الوقت.

عند رجوع المعلمات نبدأ نشاطاتنا المتنوعة، توزع علينا المعلمتان الأوراق و الأقلام بكل الألوان، امسك قلماً اخضر و انظر ملياً لورقتي البيضاء، إنها ورقتي الأولى، انه قلمي الأول، انظر إلى الأطفال الآخرين متفحصا أوراقهم باحثا عن الهام يحررني من الوقت الميت الذي بدا يمتد أمام ورقتي البيضاء، سالت احد زملائي عن كيفية رسم رجل؟؟ فوضحها لي بعدة خطوط ودائرة للرأس، فطبقتها مباشرة على ورقتي، مع ذلك لم احصل على النتيجة المرتقبة لان رسمي لم يغير شيئا من حقيقة الورقة الميتة، فأحطت بعدها الرجل بخطوط لولبية غطّته تماماً .بعد انتهاء الحصة بادرت إحدى المعلمتين بجمع الأوراق بعد ان مددت لها نسختي تفحصتها لكنها لم تفهم ما رسمته، فكسرت صمتها المطول أمام الورقة " انه رجل وسط ألعاصفة "ربما بالغت في إظهار العاصفة حتى اختفى الرجل .

مع حلول العصر، يأتي وقت الطعام من جديد، نأكل وجبتنا الخفيفة، ونخرج للساحة ولدورة المياه لقضاء حاجتنا المختلفة.

دورة المياه فسيحة ومقسمة لعدة مراحيض، لكن المذهل هو الطريقة التي كانت تتبول بها الفتيات، إنهن مختلفات عنا نحن الأولاد كثيرا، لكن فيما عدى هذه التفاصيل فأنا لم أحس قط بأنهن مختلفات حقاً.
تنتهي الاستراحة بالرجوع إلى القاعة، تمارس معنا المعلمات بعض الألعاب، في انتظار الساعة الخامسة، فيبدأ الأطفال بالمغادرة، الواحد تلو الآخر مع أمه، ليأتي دوري مخلفاً ورائي البعض من زملائي متوجهاً مع أمي إلى غرفتنا في المدينة العتيقة وقد أكملنا ما تبقى من الطريق تحت ظلمة الليل.
وسط روتين جميل تسللت أيامي بين أصابع الزمن المضطرب، فحياتي توسعت أكثر لتتحول من نهارية إلى نهارية ليلية، بسبب نسجي لعلاقات إضافية مع أبناء حينا في المدينة العتيقة، فيما البداية اقتصرت على أحد الأطفال واسمه" طارق "علاقتي به بدأت عندما كان يأتي نحوي و أنا متكئ على حائط المنزل ليفتعل معي المشاكل، فأطارده و أسقطه على الأرض لأعود بعدها للتمركز في مكاني المعتاد في جوار مدخل منزلنا؛ لكن سرعان ما تحول العداء التقليدي بيني و بينه إلى صداقة كانت المدخل للتعرف على باقي الأطفال، منهم "شعيب"،" مصطفي"،" خالد "و "رشيد "الذي كان يكبرنا سناً، ما أهله ليكون مرشد المجموعة.
نشاطاتي مع المجموعة كانت تقتصر على الليل وآخر أيام الأسبوع، نمضي أوقاتنا في اللعب في الأزقة بألعاب على شكل" قاش قاش"، "زدي ديدي"، او كرة القدم، متخذين من الحارة ملعبا لنا، لنلعب مباريات لا يكتب لها في الغالب نهاية سعيدة بسبب أحد سكان المنازل الذي يزعجه ضجيجنا متوعداً ولاعناً، هذا إذا لم يأخذنا على حين غرة ويمزق كرتنا البلاستيكية او يحجزها ولا يسلمها لنا إلا بعد ان يتأكد من انصرافنا دون إكمال المباراة.
صحيح اننا مزعجون لكن ليس نحن من صمم هذه الحياة هكذا، ليس نحن من صمم حيا بلا ملاعب، وغرفة لكل عائلة ومرحاضا

مشتركا، لحسن الحظ لم يصمموا السماء أيضا، لان النجوم والكواكب كانت ستعاني مثلنا والطيور لن تجد متسعاً للتحليق.
بالموازاة مع ذلك أوقاتي في" أرض البشر "كانت تمضي على خير ما يرام، ما عدا حصة السباحة فنحن في فصل الصيف والاستحمام جزء من النشاطات اليومية، لكن الرُّهَاب كان يمنعني من الاستمتاع، ومحاولات المعلمات كانت تكلفهن عادة الابتلال بسبب حركاتي الهستيرية، انه ذلك الخوف العظيم الذي وجد مكانا بين أحشائي، فبينما الأطفال يسبحون كنت أضع أرجلي في القاع وأحرك يدي على السطح متظاهراً بالسباحة كالباقين، الجأ إلى المكر لكي اخفي فزعي.
أما أوقاتنا في الحديقة فتجري كالعادة بين الركض هنا والتأرجح هناك، ما عدا لحظة مرور إحدى الطائرات العملاقة فوق رؤوسنا، مخترقة عالمنا السحري، نرفع رؤوسنا نحوها، كل واحد منا يشير لها بيده ويصرخ" إنها طائرة أبي"،" إنها طائرة عمي"، فادعاءاتنا كانت تتشابه لأنها تأخذ من قاسمنا المشترك في غياب الأب مصدراً لها، من يدري ربما لم نكن نكذب، ربما كنا نأمل فقط بصوت مرتفع.
الأوراق المتساقطة على الأرصفة، وأسراب الطيور المهاجرة المكتظة في السماء، عناوين عريضة تعلن الفصل الجديد، وسنتي الثانية في "أرض البشر ."نجتمع في قاعتنا الجديدة أمام المعلمة التي تنادينا للتعرف علينا، معلمتنا الجديدة اسمها" حليمة"، لكن علاقة القرب التي نسجتها الأيام معها جعلتني أناديها " بماما حليمة ."
الآن عمري ست سنوات وحسب كلام أمي فهي سنتي الأخيرة هنا لأني سألتحق بالمدرسة العمومية لأبدأ مشوار التعليم الرسمي.
الاستيقاظ في الصباح صعب جدا بالنسبة لي ولا يخلو من مشاحنات مع أمي، وصار من اللازم الاستيقاظ على الساعة الخامسة والنصف، فعليّ مرافقة أمي للعمل ليتسنى لها بعد ذلك اخذي" لأرض البشر"، عمل أمي الجديد في حانة للخمر، المكان كان مميز برائحة الخمور الممتزجة مع الدخان وإنارته الخافتة، مع

جدرانه وأثاثه الخشبي، الذي كان يخلق انطباعاً بالتواجد في مركب من مراكب العصور الوسطى.
اقتل الوقت بالتجول بين الكراسي ولعبة اضغط على أزرارها دون فائدة؛ مع حلول الساعة السابعة والنصف نتوجه إلى" أرض البشر " لتعود أمي بعد ذلك لعملها، لكن تبقى مشكلة أمي الجديدة هو يوم السبت،" فالروض "ينهي دوامه الأسبوعي بعد الظهر، وبهذا اقضي باقي اليوم مع أمي في الحانة بينما هي تنظف الأواني، لكن الوضع مختلف عن الصباح فمع استحالة الجلوس طوال الوقت في المطبخ، أتسلل إلى الخارج المكتظ بالزبائن، الذين يجلس معظمهم مقابل قارورة وكأس .أحد الزبائن يعرض عليّ التذوق من كأسه، استجابا لنظراتي الفضولية، فلا أتردد في مد شفتي داخله للاحتساء، انه مر ومقزز، الزبون يبدأ في الضحك مقهقهاً، لكن فضولي ازداد مع عدم قدرتي على استيعاب السر وراء منظرهم المستمتع باحتسائه.
مكان قضاء وقت القيلولة في قاعتنا الجديدة يتمركز في علّية بُنيت لهذا الغرض، تنقسم في ترتيبها إلى صفين متوازيين، واحدة للأولاد والأخرى للبنات .وسط سكون الظهيرة لفتت انتباهي حركة أحد الأولاد وهو يقلد الحرباء في مشيتها، متوجهاً إلى صف البنات، بعد وصوله إلى مقصده، يصعد على ظهر" سعيدة "ويبدأ في الاحتكاك مع جسمها بينما هي مستغرقة في النوم، عند انتهائه يعود أدراجه من جديد بنفس المشية، لكن هذه المرة التقت عينه مع عيني فهو لم يكن يتوقع ان يظل أحد مستيقظاً، لذا لم يأخذ عناء تقليد الحرباء في نظراتها، فقد كان سيلاحظ بسهولة أنى لست نائما.
انتظرت الوقت المناسب لأكلم" ماما حليمة "في الموضوع، في الوقت الذي بدأت أم ذلك الولد التي تشتغل في مطبخ المؤسسة تعاملني بنوع من اللطافة الزائدة، الشيء الذي جعلني اعتقد أنها تعرف بالموضوع مسبقاً لكن محاولاتها شراء صمتي لم تجدي نفعاً، فبينما الأطفال منشغلون في الاستراحة ذهبت لأكلم المعلمة التي بدورها اتخذت التدابير اللازمة حيال هذا الموضوع و من جملتها

إخطار أمه، التي كانت ردة فعلها ان استغلت لحظة انفرادها بي في احد الأماكن لتكيل لي جملة من التهديدات و التوعد، فلجأت إلى "ماما حليمة "التي أمسكت بيدي و اخدتني إليها لتوبخها على سلوكها المخزي.
صوت الامطار المتساقطة على قطعة بلاستيك تلف جسدي جعلت الحوار مع أمي شاقاً، فالمياه المنسكبة بللت الاصوات والمشهد وجعلت خطواتي تنغمس في الطريق لتتحول إلى ما يشبه السباحة بالمشي.
مع وصولنا" للروض "بدأت الأمطار تتوقف وأشعة الشمس تشق السحب السوداء، ليتحول الجو إلى لوحة من الشمس والمطر وقوس قزح.
نصطف في الساحة؛ فاليوم خاص حسب كلام المعلمة فهو يوم وداع المدير الذي سيعود إلى بلده بسويسرا .كما كان مقررا، التحق بنا المدير إلى الساحة ليلقي كلمة الوداع، التي لم نكن نفهم منها شيئا لأنها بالفرنسية، في الوقت الذي كان يخوض في الخطاب، لفت انتباهنا زوجا حذائه الغريبة فقد كانت فردة خضراء اللون والأخرى حمراء، لنبدأ في التهامس بيننا ونستسلم للضحك تباعاً فيلتحق بنا باقي الفريق والمدير متشاركين القهقهات بصوت مرتفع لتكون هي الأخرى كلمة الوداع الخاصة بنا .
"السعدية "اسم المديرة الجديدة " لأرض البشر "التي حولتها مع مجرد قدومها إلى" أرض الأشغال"، فقد بدأت مهامها بإصلاحات متعددة كان أحدها بسط غطاء من الحصى الصناعي على أجزاء شاسعة من المؤسسة، ولأن أحداً لم يكن يأبه لان يعطينا تفسيراً لما يحدث كنا نكتفي بمصادر مخيلتنا السخية التي بدورها تتحول إلى شائعات تكتسب شرعيتها من غياب تفسير من أحد الناطقين الرسميين للإدارة، وإحدى تلك الشائعات كانت تقول انهم بصدد بناء سكة حديدية سيمر عليها قطار يقلنا للتنقل الداخلي في المؤسسة.

إنجازات المديرة الجديدة لم تتوقف عند هذا الحد لحسن حظنا فقط صارت وجبة غدائنا لا تخلو من إثارة هي الأخرى، لنكتشف ان وجبة الأربعاء المكونة من الأرز والطماطم دعمت بالديدان للحصول على ما نحتاجه من فيتامينات أساسية .هكذا تطورت الأحداث لتشمل السمك الفاسد ووجبات غداء تختزل في قطعة خبز مدهون بالجبن .

لحسن الحظ لم نفقد" ماما حليمة "كما فقدنا وجبة غدائنا وشكل مدرستنا ومديرنا.

مع قدوم الخريف ترجع أسراب الطيور الكثيرة لتشوش صفاء السماء، وصفاء أذهاننا فنفقد القدرة على التركيز تاركين الاهتمام بكلام وحركات" ماما حليمة "التي جعلتنا نلتف حولها في وضعية جلوس وسط الحديقة، لترجعنا إلى الواقع قطرات المطر الدافئة، لا اعرف لماذا لم نعد إلى القاعة لنختبئ فقد كنا مندهشين وسعداء وسط هذا الخلل، كسعادتنا بانقطاع الكهرباء وإشعال الشموع لإضاءة منازلنا .

مع قدوم الصيف اخبرتنا" ماما حليمة " بالأيام التي حددت لاستخدام المسبح الداخلي، وقد اقتنت لعب مائية منها دمى تنفخ بالهواء لكي نركبها فوق الماء، كانت بعض تلك الدمى عبارة عن ثعابين برتقالية مزينة بدوائر زرقاء وشكلها دائري كعجلة الشاحنة مع الإبقاء على رأسها منتصباً.

كانت حصص السباحة موزعة على قسمين :الأطفال الأكبر سنا والأطفال الصغار .

حصة سباحتنا تبدأ بتجمعنا بجانب المسبح كالعادة ورغم خوفي من الماء فأنا أحب ان أتفحص المسبح بنظرات فضولية فقد كان سطحه مليئاً بالحشرات الغارقة التي رغم ضخامتها وبشاعتها كانت مستسلمة أمام مسبحنا الصغير، قبل النزول إلى الماء تبدأ" ماما حليمة "بتشجيعي لكي أسبح كالآخرين لكن سرعان ما أخيب توقعاتها ككل مرة فأبللها بحركاتي الهستيرية لتنصرف منزعجة، بعد نهاية

الحصة اذهب للاعتذار منها فغضب" ماما حليمة "يعني تقليص رتبتي من مجموعة المتميزين إلى مجموعة اقل مرتبه لان" ماما حليمة "كانت تقسم الصف لمجموعتين لكي تخلق جواً من التنافس البنّاء .بعد توجهي نحوها للتودد تبدأ في عتابي لأني بللت ملابسها لكني لحسن الحظ لن أعاقب فأنا كنت أحسن فن التودد وإظهار الانضباط واللطافة لكن بداخلي بركان يتحين الفرص لاجتياز كل الخطوط الحمراء لكن الخوف العظيم يلجمني دائماً.
الثعابين الهوائية لم تسلم مني فقد وجدت مسماراً صغيراً احتفظت به لمهمتي الصعبة التي كانت تتمحور حول مقتنيات" ماما حليمة " الجديدة، فبعد الاقتراب من أحدهم منتفخاً فوق الأرض أقوم بوخزه والانسحاب ليستمر عملي التخريبي على هذا المنوال لتجد" ماما حليمة "في كل صباح أحد ثعابينها منهاراً بعد فقده كمية كبيرة من الهواء، فأقوم بالتجمهر مع باقي الأطفال وأبدي اندهاشي مع صديقي "بدر"، في ذلك الوقت أتت" ندى "مربية الصف المجاور لزيارة "ماما حليمة "وسمعتها توبخها وتقول لها انها استعجلت في شراء الثعابين لان نوعيتهم رديئة .لكن في الحقيقة الثعبان الرديء الوحيد كان أنا .هكذا نحن في معظم الوقت نقدم النصائح ونحن نعتقد أننا نعرف كل التفاصيل بدقة .
طريقي الصباحي مع أمي كان له محطاته الاعتيادية فبعد ان غيرت أمي عملها بدأنا التوجه إلى الروض في أوقات متأخرة بالمقارنة مع الأول مما أتاح لنا فرصة الحصول على رفقاء الطريق مثل فاطمة الزهراء وأمها لنبدأ رحلتنا بالمرور من أمام موقف للسيارات كان صاحبه يربي ديكا مشاكسا يطاردنا كلما مررنا من أمامه، فقد كانت فريسته المفضلة" فاطمة "لأنها ترتدي تنورة قصيرة مما يسمح له بتوجيه نقرات قاضية يعلو معها صراخها، بعد اجتياز هذا الحاجز تبدأ" فاطمة "و أمها تفحص الكدمات و عد ها القديمة و الجديدة لكني لا أبالي كثيرا بالموضوع فأنا أول المستفيدين من اهتمام الديك الزائد بها، لكن سرعان ما ننسى قصة الديك مع اقترابنا من سينما

"لارك "فحارسها السيد" حسن "يستقبل مرورنا من أمامه بعطائه اليومي وهو عبارة عن درهم ينادينا كلما مررنا من أمامه ليسلمنا إياه.
"بدر، حلوة، فلاح، خالد ."أصدقائي المميزين في الروض لكن أكثرنا بؤسا كان خالد فأمه كانت معاقة اسمها خديجة ويلقبونها "المعوجة "لكي يفرقوا بينها وبين خديجة أم" بدر "التي كانت أحد العاملين بالروض، قصة أم" خالد "تتلخص في كونها تعرضت للاغتصاب وأنجبته، فرغم إعاقتها الذهنية والجسدية لم يرحمها مغتصبوها ولا القدر الذي لم يجردها من القدرة على الإنجاب عندما حرمها من قدرتها البدنية والعقلية .لحسن الحظ احتفظ بها الروض مع ابنها لكيلا يفترقا،" ف خالد "وسيم وهادئ بطبعه ولون شعر الممتزج فيه الأسود والأصفر جعله يبدو فريداً.
نبدأ حصتنا الصباحية بتسجيل الحضور اسمع" نوري "فأجيب حاضر وأنا أحس بالانتماء للاسم كأن المربية لم تقل شيئا قبل وبعد مناداتي.
بعد تناول الفطور انصرف إلى لحديقة كالعادة برفقة مجموعتي الصغيرة، اليوم كان مميزاً، فقد كان هناك من يلقي علينا التحية من وراء سياج الحديقة الذي يفصلنا عن حديقة الكنيسة، فلقد اعتدت فقط على رؤية البستاني وهو يعتني بأشجار الدير المثمرة على خلاف أشجار حديقتنا؛ نقترب من السيدة نتنافس على ترديد التحية لتجيب كل واحد على حدة، بقيت مشدوداً لوجهها المريح وابتسامتها العريضة وهي تردد" بون جور"، لباسها كان غريباً فقد كان لونه بنيا و يغطي كل جسدها مع أجزاء تحتية بيضاء، بعد انصرافها انتقل اهتمامنا إلى أشجار المشمش وراء السياج العازل كان أحسن لو حصلنا مع" بون جور "على بعض الثمار منها.
يوم السبت بعد الظهر اقضيه مع أمي في عملها الجديد وهو مجمع سكني لليهود، كان يديره" سليمو "رجل دين عجوز يعيش مع زوجته فقد كان أولاده مهاجرين إلى فرنسا، لا أتذكر سوى لطافته معي فقد كان يقبل مرافقتي له في أرجاء المبنى وهو يمارس مختلف

مهامه، في أحد الأيام انزلقت أمي وبعد استعادة توازنها قالت: "سيحت ليهود "متناسية ان" سليمو "في الجوار، فأجابها:
" و سيحت المسلمين لا"؟" الله يطيح ليكم الزالة"
(كلمة الزالة تعني القدر او القيمة).
لم افهم العبارتين المتبادلتين لكني لم أتأثر بتداعياتها فسليمو أخدني معه إلى المخزن ليعطيني بعض الحلوى .
من ضمن وسائلي لتمضية الوقت، اللعب في المصعد وفي سلالم الطوارئ اللولبية فبعد طلوع ونزول أتوجه إلى السطح لأجلس متأملا في السماء وسطح المبنى المخضر بالطحالب مستأنساً ببعض أحلام اليقظة التي كانت بعضها متعلقة بأبي، كأن يأتي بطائرة ويأخذني معه وأمي .

الفصل الثالث

الحلم بهوية ووطن خلق ليحتويني

عادة بعض أطفال الحي الذين أتشاجر معهم يقولون لي" اذهب للبحث عن والدك"،
أما أمي فعندما أحكي لها عن الموضوع تجيبني ان أبي عراقي ..
وتريني شهادة ولادتي من مصلحة الأجانب وكل الوثائق التي بحوزتها، موضحة لي انه ينقصني التسجيل بالقنصلية العراقية فقط.
-ماذا كان يعمل أبي ؟
-أبوك كان تاجرا ناجحا و معروفا بمدينة" البصرة "
-إحكي لي أكثر عنه يا أمي
-حسنا، قصة أبيك بدأت عندما هرب والده إلى الكويت ليختفي عن الأنظار هناك، بسبب تراكم الديون عليه اثر إدمانه على الخمر و الغجريات، فقد كان يبدد ما يكسبه من تجارته و يستدين أيضا إلى ان وصلت به الأمور إلى الإفلاس والهرب بعدها، تاركا أسرته من غير معيل، فاضطر والدك ان يترك دراسته ليعيل إخوته الصغار و أمه، فكانت قبلته سوق معروف في البصرة باسم سوق" هرج"، التجأ فيه إلى احد أقاربه ليعمل مرتب للملابس الممزقة أو التي تحتاج لتعديلات و كانت الحرفة معروفة باسم " رواف."
استمر والدك على هذا الحال، يدبر أمور أسرته بما يكسبه من نقود قليلة بالكاد تبقيهم على قيد الحياة، فبدأ يفكر في المستقبل بنظرة مستشرفة، فحرفته تتركه دائماً في العوز، بالإضافة إلى اضرارها على سلامة عينيه.
فبدأ يفكر في ولوج عالم التجارة وطبعاً كانت أقرب تجارة إلى فكره هي تجارة أبيه المتمثلة في بيع الملابس المستعملة المستوردة من " أوروبا "
-ولكنه لم يكن يملك شيئا؟
-نعم فقد قصد احد أقاربه و اقرضه المال لكي يؤجر محلا في السوق و يشتري السلع.
هكذا كانت البداية التي سرعان ما تحولت إلى قصة نجاح وصارت حديث كل تجار السوق فالحظ وفقه لدرجة انه وجد مبلغاً محترما

من المال في جيوب أحد السراويل القادمة من فرنسا، بالإضافة إلى ان التجارة في الملابس المستوردة كانت محفوفة بالمخاطر فأنت تشتري الطرد بالطن وهو مقفول لا تستطيع التأكد من محتواه، لكن أباك كان يوفق دائماً بنوعية جيدة تجعله يجني الكثير.
بعدما تمدد عمله ليشمل استيراد الملابس الجاهزة واقتناء العقارات وتأجيرها وحتى أعمال الصيارفة وتأمين خطوط إمداد التجار بالعملة الصعبة .
-و هل كان يعرف مصير جدي ؟
-نعم فقد دفع عوضاً عنه كل الديون و لم يعد احد يلاحقه وأرجعه من الكويت وقد كان جدك فخوراً به. وكما كان هناك من يفرح بنجاحه كان هناك أيضا من يزعجهم ذلك من أفراد أسرته
-وكيف كان يتصرف بالمقابل ؟؟
-كان يقول غالباً : الرجل الذي به خير يكون نفسه بنفسه، و ان المجال مفتوح أمام الجميع لينجح مثله .
-ماذا كان يحب ابي؟
-كان يحب السفر كثيراً فهو لم يترك مكانا إلا و سافر إليه، هكذا التقى بي في المغرب و أحبني و ذهبت معه للعيش في العراق، كانت ثلاث سنوات صعبة بسبب الحياة المشتركة و تصرفات جدتك فقد كانت زيجتين من قبل لوالدك فشلت ولك إخوة منها.
فقد كانت جدتك تخلق جحيماً، وكان حملي بك آخر مسمار في نعش علاقتنا فقد كان يصر على الإجهاض لأنه لم يكن يريد أطفالا إضافيين بل فقط ان اعتني بأطفاله، فعدت بعدها وأنا حامل بك في شهري الخامس، بعد محاولاتي الفاشلة في الإجهاض لأنك تشبث بالحياة ".
-و هل يعرف بوجودي؟
-نعم لقد بعثت له برسالة فيها صورتك، و راسلت صديقه المقرب أيضا لكن صديقه الوحيد أرسل ردا يتأسف عما حدث و انه وبخ أباك كثيراً دون نتيجة.

-احكي لي عن موقف تتذكرينه عنه؟
-مثل ماذا يا بُني ؟؟
-لا اعرف؛ أي شيء .. أي شيء.
-مرة في سفره إلى الكويت نزل بأحد الفنادق و عند دخوله إلى الحمام نسي ساعته الذهبية وبعد رجوعه للبحث عنها لم يجدها حيث تركها .فقدم شكايته في الموضوع للمشرفين على الفندق فطلبوا منه تأدية القسم حتى يعوضوه ثمنها.
-و ماذا فعل أبي ؟
- لم يقبل طبعاً فقد اعتبر طلب المشرفين إهانة في حقه و تشكيكا في روايته.
بعض هذه التفاصيل اسمع أمي كثيرا ترددها لبعض الأشخاص، منهم قنصل دولة السنغال الموجود مكتبه في المجمع اليهودي، انه شخص ودود، لكن اليوم على غير عادته أعطى أمي بعض المال وانصرفت معها بعد ان التحقت بها بالصدفة، وقبل ان اسألها تبادرني بالقول ان القنصل أعطاها المال للذهاب إلى الرباط من اجل مشكلة جنسيتي العراقية ونحن نتحدث يقاطعنا" الحسين "حارس المجمع بضحكته المتصنعة لتجيبه أمي بقهقهة متوترة، وتهمس لي انه ليس له عمل سوى التدخل في شؤون الناس.
اليوم وجهتنا مدينة الرباط حيث تتواجد القنصلية العراقية، لكن أمي تسال الناس في المدينة على وزارة الخارجية فهي تحتاج إلى ختم بعض الوثائق ليكون الملف الخاص بي جاهزاً، بعدها نصل القنصلية لأخذ دورنا لمقابلة القنصل .أحد الأشخاص يعرض عليّ الشاي لكني ارفض فأمي تقول لي دائماً لا تأخذ شيئا من الغرباء، لكنها لم تقل لي يوماً لا تنظر إليهم.
دققت في وضعية كل الموجودين في صالة الانتظار فمنهم من ينتظر دوره وهو مستلق على ظهره ومنهم مجموعة اختارت ان تجلس على الأريكة منفردة تتجاذب أطراف الحديث وتدخن السيجارة البنية الكبيرة.

بعد وصول دورنا ندخل مكتب القنصل تبدأ أمي في سرد قصتها وهي تضع ملفي على مكتبه لتتغلب عليها الرغبة في البكاء فيبادرها بالقول ان عليها الذهاب للعراق لمحاولة حل المشكل فتجيبه أمي ان إمكانياتها لا تسمح، بعدها يجيبها انه سيراسل بغداد في الموضوع لتنتهي المقابلة ونعود أدراجنا لمدينتنا.

تأثرت كثيراً بالطائرة الورقية التي شاهدتها في الكثير من القصص التي كانت تقرأها لنا" ماما حليمة"، فقررت صناعة واحدة وبدأت أول خطوة بمشاركة الفكرة مع أمي.

فأنا كنت احتاج إلى الورق وخيط طويل لكي أتحكم في الطائرة وهي في السماء، وعندما تشاركت احتياجاتي معها أيدتني على الفور وذهبت لتشتري الورق والغراء أمّا الخيط فقد كانت تتوفر عليه .

بعد ان أكملت المهمة بنجاح لم يبقى سوى مرحلة الطيران التي سأجربها غدا في الصباح .

وجدت صعوبة كبيرة في النوم لأني جد متحمس للغد، متقاسماً السرير الحديدي الضيق مع أمي، ننام بطريقة معكوسة رجلي في اتجاه وجهها ورجلها في اتجاه وجهي، ابحث عن يدها لامسك بها حتى أنام لكنها ترفض إعطائي إياها فابدأ بالبكاء فتبادر إلى تمكيني منها وفوراً تنغلق حفنتاي ولا تنفتحان إلا على صوت أمي تناديني للنهوض من الفراش.

ننزل السلالم متجهين إلى الخارج ومعي طائرتي كأبطال القصص، انتظر ان نجتاز مدخل الزقاق الذي أغلق بفيضان المجاري .فور العبور الناجح فوق قطع من الرصيف التي وضبها سكان الحي لتكون منصات للعبور وسط بركة المياه الآسنة يأتي دور طائرتي لتطير، أبدا في رميها للأعلى لكن دون جدوى فتقترح على أمي ان اركض وأنا أجرها لتحصل على الطاقة لتطير، لكن بدون جدوى أيضا، ومع تشابك الخيط يزداد إحباطي، فهمست لي أمي ان أجرب رميها من شباك غرفتنا.

كذلك كان الأمر مع عودتي في المساء؛ رميت بها من الشباك وفي كل مرة لا تطير اسحبها لأعيد المحاولة من جديد إلى ان علقت بخطوط الكهرباء فاكتفيت بسحب الخيط بقوة لأتمكن من استعادته لتقليل الخسائر.

وأنا أتأمل في حطام طائرتي بين الأسلاك انتبه إلى كيس بلاستيكي اسود يتراقص مع تيارات الهواء .

الموضوع الآن واضح ولا يحتاج إلى تخمين كبير فخيطي لم يكن ينقصه سوى الكيس الأسود الذي كانت تحتفظ أمي بالعديد منهم بعد شرائها لاحتياجاتنا من السوق، تضعهم جانباً لإعادة استخدامهم عند الضرورة .

اربط الكيس وأخرجه من الشباك بمجرد ملامسته للريح يطير من يدي دون عناء فاستمتع بشده بالخيط وهو يقاومني، إحساس جميل فأنا أتقاسم نفس شعور أبطال القصص بكيسي الطائر، غير ان الضوضاء التي كنت أصدرها كانت تزعج رسام الحي الذي كان يستخدم أسطح أحد المنازل المهدمة كورشة صغيرة لرسم لوحاته التي كانت الألوان فوقها لا تبالي بالخراب الذي يحيط بالمكان كونها هي من تخلق الفرق بجمالها .لكن ضجيجي كان يصنع نوعاً من الفرق كذلك فهو لا يكف عن الالتفات نحوي بوجه متجهم وهو يرسم.

لكن مغامراتي مع الأكياس الطائرة صنعت الفرق أيضا فوق خيوط الكهرباء التي صارت مكسوة بما علق عليها من أكياس .

كما اعتدت على رؤية الطيور تهاجر ذهاباً وإياباً حسب الفصول، فقد حان وقتي أنا الآخر لأغادر سماء" أرض البشر "إلى وجهة لا اعرف عنها شيئا فحسب كلام أمي فحتى الآن لم تقبلني أي مدرسة بعد بسبب أني لا أتوفر على حالة مدنية ولأن شهادة ميلادي للأجانب، لذا أنا الآن اقضي أيامي في غرفتنا مبتكراً طرقا متنوعة لقتل الوقت في انتظار رجوع أمي من العمل ففي آخر مرة أخذتني معها إلى بيت احد أرباب عملها من اليهود في المجمع السكني تشاجرت مع

أولادهم بسبب سيارة، فقامت أمهم و هي طبيبة بتوبيخهم، ورغم ان أمي قالت لها انه ليس هناك داع لتوبيخهم أجابتها بأنه ليس من حقهم ان يضربوه .لذلك تتجنب الآن اخذي معها لمكان العمل لكيلا تقع احتكاكات هي في غنى عنها .لكن بالنسبة لي كانت أول مرة أنصف في شجار مع أبناء أصحاب عمل لأمي، فأنا أتذكر انه في أحد الأيام كانت أمي تقوم بتنظيف أحد المنازل بينما أنا ألهو مع أطفالهم وقد حان وقت الرسوم المتحركة فتحلقنا حول التلفاز لمشاهدة الرسوم المتحركة وكانت آنذاك سلسة اسمها" سالي"، لكن تفاعلهم مع مشاهد السلسة كان غريباً فقد كانوا يضحكون على جوارب "سالي "المثقوبة بينما أنا كنت حزيناً بسبب المشهد؛ في آخر ذلك اليوم أتت ربة البيت تشتكي لأمي أني عبثت بأغراضها في غرفة النوم فتوجهت أمي لتوبيخي لكني أكدت لها أني لم ادخل الغرفة أصلاً، لكن ربة البيت لم تصدق كلامي و قالت لأمي ان أولادها أكدوا لها ذلك و أنهم لا يكذبون .لا اعرف من أين أتوا بهذه القسوة رغم ان الحياة عاملتهم أحسن مني.

اسمع صوت احتكاك يشبه وقع أقدام أمي؛ نعم إنها هي على غير عادتها أتت مبكراً على الساعة الثانية عشرة، تدخل متحمسة وهي تقول:

-هيا علينا تحضير ملابسك و تناول وجبة الغداء فقد قبلوك في المدرسة

فأجبتها :كيف ذلك ؟؟

قالت: بعد قصدها لأحد المدارس و رفضهم قبولي جلست في احد الحدائق مهمومة و الدموع تنهار من خديها، فاقترب منها رجل يسألها عن مصابها فحكت له القصة فأجابها بغيض لماذا لا يقبلوه أليس عربي و مسلم ؟؟

وتكمل أمي القصة وتريني ورقة في يدها وهي تقول ان الرجل يعمل مفتشا في التعليم فكتب لي رسالة إلى مدير المدرسة التي قبلوك بها وقد قال لي المدير ان أحضرك بعد الزوال.

انتهى بنا المطاف في رصيف يحيط بحديقة تقسم أحد الشوارع المقابلة للمدرسة إلى قسمين، افترشته أنا وأمي التي تسأل كل من مر من أمامنا عن الساعة وتخاطبني وهي متوترة إنها ليست الثانية بعد، يبدو ان الوقت الميت انتهى بتوجهنا نحو باب حديدي اسود، توقفنا سيدة في الباب لتسألنا عن قصدنا، تجيبها أمي ان لها موعدا مع المدير فتشير عليها السيدة للحديقة الداخلية لتجده هناك مع رجل ثان يتسلمني ليأخذني معه إلى قاعة كبيرة مكتظة بالأولاد، مع دخولنا يبدأ السيد في البحث لي عن مكان كمن يبحث للإبرة عن موضع وسط القش .

بعد ان حصلت على مقعد بدأت في التعرف على رفاقي الجدد، فأمي كانت تلح عليّ بأن أتعاون مع الأطفال في المدرسة وان أتعلم منهم ويتعلموا مني وتنصحني بان أصادق من هم أعلى مني مكانة، فكان أول ما قمت به هو تنفيذ وصاياها فالتفت إلى أحد الأولاد خلفي وقلت له:

-اسمي نبيل، سعيد بالتعرف عليك هل تقبل أن نتعاون وتعلمني وأعلمك؟

فأجابني بكل لطف :التفت أمامك يا ابن" القحبة"

لم افهم ردة فعله، ربما علي تدبير أموري دون الاعتماد على نصائح أمي، كما كنت افعل دائما .

لم أفهم يوماً ما يعنيه لقب معلمنا" غداس"، فقد كان يحب ارتداء سترة تميل إلى اللون الرملي أو ربما لم يكن له ما يكفي من المال لشراء مثيلاتها بألوان مختلفة، وجهه دائري و بشوش وشعره مليء بالبياض، يعطي انطباعا بالاحتواء والحنان، حتى عصاه التي لم تكن تفارقه كانت عريضة وقليلة السمك و ذات لون بني مسود شيئا ما، مما يعطي تأكيد أنها رافقته مدة ليست باليسيرة وكان يشاع بين التلاميذ الذين تذوقوا طعمها أنها ليست مؤلمة، وفعلا كانت كذلك فلم يمض وقت طويل حتى حظيت بشرف تذوقها، فاليوم في الحصة جربت شيئاً تافهاً للغاية فالمعلم كان يعاقب كل من لا ينتبه

إلى السبورة و هو يشرح عليها الدرس، و لأني كنت أتعب من التركيز و اشتاق إلى أحلام يقظتي تخيلت ما اعتقدت انه المخرج لي و هو أني ساترك راسي في اتجاه السبورة بينما أدير عيني إلى حيث أريد ولن يعرف بالأمر، لكن سرعان ما اكتشفت غباء النظرية مع ارتفاع صوت المعلم و هو يناديني بالقدوم إليه لأن تركيزي ليس معه، فحمل عصاه التي تشرفت بالنظر إليها عن قرب، فيأتي الأمر بان أمد يدي لتنهال عليها العصى المقدسة، بعد أخذ نصيبي من الضربات الغير مؤلمة عدت إلى مكاني.

حقا أنا افتقد الروض وأصدقائي و"ماما حليمة "فلم أكن اتلقى هناك الضرب او يستخدم أحد معي كلمات قبيحة.

مع اقتراب انتهاء الحصة يطلب منا المعلم جمع أغراضنا لقراءة بعض القران قبل المغادرة، يبدأ المعلم بذكر اسم لسورة معينة فيبدأ التلاميذ في قراءتها فمعظمهم يحفظونها عن ظهر قلب، إلا أنا، لكن كالعادة لم تكن تنقصني الأفكار النيرة لأخرج من المأزق، والحل كان أني أحرك فمي دون إصدار صوت وبهذا اندمج مع المجموعة وهذه المرة نجحت الفكرة فقد انطلت الحيلة على المعلم، فالمحاولة ليست هي الهدف إنها وسيلة فقط لذا لا يجب ان يمنعنا الفشل من إعادة المحاولة مرات ومرات.

إنتهت الحصة وحان وقت الرجوع إلى البيت، عند مغادرة الصف منعتنا الحارسة من مغادرة المدرسة إلى حين قدوم أحد من يرافقنا من أهلنا، لكني حاولت ان أقنعها انه ليس هناك من يرافقني وان أمي بالعمل، لكنها لم تصدقني حتى أخرجت مفتاح الغرفة المربوط بسروالي فاقتنعت وتركتني أنصرف.

اسم المدرسة" الكندي "تتكون من طابقين ساحتها كبيرة بأرضية مصنوعة من حصى ضخم حاد مغطى بالإسمنت، لكن بعض الأماكن اختفى منها الإسمنت ليترك رؤوس الحصى بارزة تدغدغ حوافها كل من سقط عليها وهو يلعب، أمّا الساحة فلم تكن تتوفر على حدائق خاصة و فضاءات للعب غير نخلة كبيرة تتوسط

المشهد و بعض أشجار الموز الغير مثمرة و مراحيض جماعية مكسرة الأبواب كنت أتجنب استخدامها بسبب الرائحة و منظر المخلفات المقزز، لكني كنت استسلم للعطش و استخدم الصنابير النحاسية المخصصة للشرب الموضوعة وسط المدرسة كتلك المخصصة للمجمعات السكنية العشوائية التي ليس لها بنية تحتية، مع استخدام أيدينا المتسخة كأوان للشرب.

عند الرجوع الى الغرفة، ادخل إلى أحد الغرف المجاورة التي كانت تؤجرها سيدة مطلقة مع ابنتها وأخواتها لأشاهد عندهم الرسوم المتحركة، بدأت أتعود عليهم شيئا فشيئا، فلم يكن يظهر عليهم الانزعاج من زياراتي التي تتعدى الأوقات الاعتيادية خصوصاً عندما تكون ابنة صاحبة الغرفة في زيارة لامها فهي عكسي تعيش مع أبيها، اسمها" سهام "شعرها اصفر محمر ولون بشرتها قريب من لون شعرها، علاقتنا لم تكن قوية كعلاقتي مع" فاطمة الزهراء "بنت ابن أصحاب المنزل لأنها لم تكن كثيرة التواجد لكني كنت استمتع برفقتها لأني ألقى الترحيب من أمها و أخواتها .

اليوم على غير المعتاد جارتنا صاحبة التلفاز غير موجودة، ولان الإدمان تمكن مني فلم استطع تفويت حلقات اليوم، فلم استطع ان اذهب عند أسرة" فاطمة الزهراء "لان علاقتنا معهم كانت على غير ما يرام، فأشارت علي أمي بالنزول إلى عائلة" الزوهرة "في الطابق الأرضي لقد كانت عائلة كبيرة مكونة من" الزوهرة "و زوجها و خمسة أبناء و أختيها، مجتمعين في غرفتين، عند نزولي أتسلل بخجل والتقي بسيدة يلقبونها" بدادا "و هي الأخت الكبيرة "للزوهرة"، فتحييني وبعدها اتبعها إلى الداخل فتوقفنا" الزوهرة "و هي تسأل" دادا "عن الدافع وراء تطفلي عليهم، فاستدرت و عدت أدراجي لأتخلص من الموقف المحرج أمّا أمي فلم تسألني عن الأحداث فقد عرفت بعد مرور الوقت أنها سمعت من الكُوَّة ما قالته" الزوهرة."

في اليوم التالي عندما عدت للغرفة بعد المدرسة كانت أمي بانتظاري لتأخذني معها لقضاء حاجة ما وبعد ان التحقت بنا صديقتها في الطريق انتهى التشويق عند محل كبير لبيع الأجهزة المنزلية وكان ما لفت انتباهي هي أجهزة تلفاز كبيرة بإطار خشبي، بعد مشاورات كثيفة مع البائع قررت أمي شراء تلفاز صغير بإطار بلاستيكي اسود وقد أكدت الصفقة بسحبها لكيس صغير اكتنزت بداخله أوراق نقدية كثيرة لم أكن أميز قيمتها بقدر تمييزي لألوانها المختلفة، عند رجوعنا للغرفة كانت مرحلة التشغيل واكتشاف مواصفات الجهاز، الذي تبث شاشته باللون الأبيض و الأسود وبقناة واحدة تشتغل مع الثالثة بعد الزوال، لكن من يأبه لهذه التفاصيل، فالتلفاز كان بيننا كمولود جديد أتى معظم جيراننا لتهنئة أمي عليه .
على غير المتوقع تقاطع حصتنا الدراسية ضيفة من عالم آخر رفقة المدير الذي قدمها للمعلم وانصرف، تاركا لهم المجال ليتبادلا الحديث معا، بينما أنا انظر لها وقد كنت الوحيد في القاعة الذي كان عنده الجواب على هويتها.
" ماما حليمة"، قدومها كان به تعزية كبيرة لي كزيارة سفير لمغترب في مأزق؛ طلب مني المعلم الالتحاق بهم، فأمسكت بيدي و سألتني "هل كل شيء على ما يرام؟ "فحركت راسي بالإيجاب، فزيارتها أنستني الفصل المزدحم بأربعة وأربعين طفلاً، والألفاظ السيئة، والمراحيض الكريهة، والحصص الطويلة المملة، وطريق العودة إلى الغرفة وحيداً، وافتقادي لأصدقائي والوجبات اللذيذة والقصص التي كانت تروي لنا" ماما حليمة "والأنشطة والألعاب في الحديقة والمسبح الصغير والسلاحف الضخمة، انه عالم أسدل عليه الستار لأجد نفسي وحيداً وسط المشهد الجديد الذي يكمل واقعي المؤلم ويخلو من أية مواساة .بعد ان انصرفت" ماما حليمة "عدت لموضعي لتنهال عليّ أسئلة الأطفال عن ماهية الزائرة اللغز فكنت أجيب أنها" ماما حليمة "من" أرض البشر."

تذكرت بدر، حلوة، خالد، فلاح، يا ترى ماذا حل بهم وأين هم الآن؟ اشتقت إليهم كثيرا.

مضت السنة الدراسية بروتينها الرتيب أما عطلتها فتفوقت عليها رتابة، اقضي معظمها في مشاهدة التلفاز وأحلام اليقظة واللعب مع أطفال الحي وبنات الجيران فلم يكن هناك أولاد بعمري في المبنى الذي نقطنه، إلا ان تلك الوحشة تكسرت عندما اكتشفت أني أستطيع قراءة نص من الكتاب المدرسي لوحدي دون توجيه من المعلم، يا له من شعور جميل فلقد صرت أجيد القراءة، كان المعلم سيثني عليّ بالتأكيد لو قرأته أمامه .

الاستحمام من أحد الأنشطة التي لم تكن محببة عندي، لسوء الظروف التي كانت ترافقها، فحمامي كان نفسه الإناء البلاستيكي الأحمر الكبير المخصص لغسل الملابس، تدخله أمي للغرفة وتدخل معه أنبوبة الغاز الصغيرة وبقراج ودلوين أحدهما للماء البارد والآخر للساخن، ولان أمي كانت تعمل منظفة فهي تتعامل معي بمهنية عالية تخلو من التعاطف فهي تفرك جلدي بكيسها الأسود الخشن الذي لا يتغير إيقاعه عبر المناطق المختلفة من الجسم، الحساسة منها و الأقل حساسية، إلى ان تأتي مرحلة امتصاص الأذنين، لتجفيف ما علق بهما من حثال، عندها اعرف اني وصلت إلى بر الخلاص.

أما الحمامات الخاصة في حيّنا، كانت امتيازاً للبعض لان معظم الأسر كانت تؤجر غرفة بعدّة أمتار، أما حمام اللّامحظوظين يختزل في مرحاض تتناوب عليه كل الأسر المشتركة في الطابق لقضاء حاجاتها الطبيعية وفي الكثير من الأحيان كان يستلزم الأمر انتظار الدور وأيضا جلب الماء من سقاية عمومية مخصصة للمنازل الغير مربوطة بالشبكة، أما الاستحمام فيكون بالذهاب كل أسبوع لحمام عمومي كبير على شاكلة الحمامات التركية، لكن لأنه لم يكن لي أب يأخذني معه فقد كنت أنال عوضا عنه حصة خصوصية في الغرفة.

بعد ان رتبت أمي الغرفة جلست على غير عادتها لتشاهد معي التلفاز، فاليوم الجمعة والبرنامج الليلي كان مخصصا للفلم العربي

كما يسمونه على خلاف يوم السبت الذي كانت ليلته لعرض الفيلم الأجنبي .وكالعادة الفيلم العربي هو فلم مصري، والذي تحب أمي مشاهدته كحبي للرسوم المتحركة .إلا ان تلك الأفلام كانت توحي لي بالتشاؤم والرهاب، فمواضيعها كانت قاتمة وتنقل صورة للطبقية والظلم والحرمان وضيق الأفق، وكانت اسعد اللحظات فيها وأكثرها إثارة تتلخص في موائد الأكل وحوارات مثل" سأطبخ لك زوج فراخ محشي وسأعمل لك ورق عنب "مع مشاهد الموائد الممتلئة .هكذا نأخذ حصتنا في معاناة وحرمان المصريين مع حذف المشاهد الساخنة من قُبَل وعناق لأنها تخدش الحياء، على خلاف الفيلم الأجنبي الذي يعرض يوم السبت وفي الغالب يكون أمريكيا مترجما بالفرنسية لكن بخلاف المصري الأكل والسيارة والعمل والمنزل ليس امتيازا، بالعكس فهم متفرغون لأمور أهم كسرقة البنوك والهروب من السجون والسفر عبر الزمن والمجرات مع حذف المشاهد الساخنة أيضا لأنها النقطة المشتركة الوحيدة بين الأفلام العربية والأجنبية.

شراء حقيبة مدرسية جديدة وجلبها لي، كعودة السنونو التي تنذر بالربيع، لتنذرني بقرب بدء السنة الدراسية الجديدة.

أول حصة في القسم الابتدائي الثاني وسط قاعة مكتظة اجتمع بها زملائي من القسم الأول وقدماء المحاربين الراسبين، وكانوا يتميزون بقاماتهم الطويلة، وكاريزماتهم لا تبعث على الارتياح، أول حصة كانت لتسجيل اللوازم المدرسية والتعرف على المعلم الجديد ولقبه "عصمرة"، لونه اسمر مع الميل للزرقة بسبب إدمانه على التدخين.

بعد ان أخذت الدراسة مجراها العادي وزعت المهام كما جرى العرف على التلاميذ المتفوقين في الصف وهي مناصب في غالب الأحيان مجمدة وقد وزعت كالتالي :منصب الرئيس كان من حق "حسن "وهو أحد أصدقاء الدراسة كنت أرافقه في طريق المدرسة رفقة أخته الكبرى التي كانت تدرس هي الأخرى في" الكندي بنات"،

ونائب الرئيس" بوشبوك "الذي كان أبوه رئيسا لجمعية آباء وأولياء التلاميذ الخاصة بمدرستنا ولأني بدون أب فلم تكن أمي تشارك الرجال في الجمعية، و كان منصب الأمين من نصيبي، لكنها مناصب شكلية فالمعلم كان هو من يجمع النقود من التلاميذ لمناسبة معينة كشراء حلوى نهاية الدورة الدراسية او كأس المسابقات الرياضية التي كان يجمعها دون ان يشتري بها في الآخر أي شيء، فقد سمعته مراراً يغتاب معلم القسم الأول مع المعلمين الآخرين و يقول لهم:

-لم اقبل ان يدخل ابني لمدرستنا لكي لا يدرس عند" غداس "

و ينعته" بالفقيه "بسبب القراءات القرآنية في آخر الحصص لكن في الحقيقة لم تكن عائقاً بالنسبة لي فأنا لم أحفظها يوماً و قضيت العام و أنا امثل تلاوتها بالإضافة إلى انه كان معلما طيبا و لم يأخذ منا يوماً المال لشراء شيء و لم يكن عنيفاً مثله ففي احد الحصص أخطأت في تمرين وقام بصفعي إلى ان وقعت أرضاً، و قد فعلها أيضا مع تلميذ آخر لكنها لم تمضي بسلام، فقد اصطدم مع احد الطاولات و ازرقت عينه، فطلب منه المعلم ان يدعي انه انزلق و سقط، بينما حذرنا من الترترة بالموضوع أمام الناس و طبعاً الكل تعاون خوفاً من المعلم و قد كان من بين التحفيزات انه أعطى للتلميذ مكانا في مقدمة الصف و هو المكان الخاص بالمجتهدين و أيضاً أوكل له حراسة الصف في غيابه و تسجيل المشاغبين ليلقوا عقابهم عند عودته، فبعد ان سكت على حقه كافأه بأن صنع منه واشٍ، ما حدث لم يكن رادعا للمعلم فقد شتم أحد التلاميذ لكن هذا الأخير أخبر والديه الذين قرروا التوجه لمدير المدرسة وكانت لهم الجرأة النادرة لان معظم أولياء الأمور كانوا يفضلون الصمت خوفا من انتقام المعلم وحرصاً على مسيرة أبنائهم الدراسية، وبعد المواجهة في القسم أمام الجميع أنكر الموضوع فانتهت المواجهة بنقل التلميذ إلى مدرسة أخرى.

في نهاية الدورة أعطانا المعلم نصوصا نكتبها في العطلة مهدداً إيانا بالضرب لكل من تخلف، وبما أني كنت أؤجلها يوماً بعد آخر حتى

مرت إجازة العطلة القصيرة لأجد نفسي في مواجهة مصيري الأسود فقررت التخلي عن الدراسة وعدم التوجه للمدرسة، ففي كل مرة أذهب فيها إلى المدرسة، أعود أدراجي مدعياً ان المعلم لم يحضر، ولان خطتي كانت طويلة الأمد، فقد فكرت في تزوير النتائج الدراسية.

بعد مضي أيام وأنا لا ادرس مكتفياً بإخبار أمي ان المعلم مريض بدأ الشك يستوطن نفسها خصوصاً مع نصيحة صديقاتها ان عليها التوجه إلى المدرسة لتبين الأمر. في صباح اليوم التالي، ذهبت معي للمدرسة ممسكة بيدي وبعد الابتعاد عن الحي سحبت يدي من يدها وهربت إلى وجهة مجهولة فالآن انكشف أمري وعليّ الهرب من عقاب أمي أيضا، جريت إلى إحدى المدارس واختبأت عند مدخلها، بقيت واقفاً هناك لوحدي أمام المدخل الخالي من أي تلميذ مع استغراب العابرين لكوني الطفل الوحيد الواقف أمام باب المدرسة، فأشار إلى أحدهم فلم استجب له، لكني تخيلت انه سيتبناني ويعاملني كإبنه، فالأبواب ورائي مقفلة فقد فقدت دراستي وأمي بسبب تلك الواجبات اللعينة وخوفي من العقاب.

بعد قضاء مدة طويلة إذا بأمي تباغتني وتلقي عليّ القبض مع صديقتها وتأخذني معها وهي تتوعدني بأشد العقاب، ومع وصولنا للغرفة أخرجت أحد أحزمة سراويلي وانهالت عليّ بضربٍ غير مؤلمٍ لكنه ليس من مصلحتي ان تعرف ذلك فأتصنع الألم وهي تردد" أنه عقاب من يهرب."

في الغد توجهنا لمقابلة المدير وطلبت مني أمي تقبيل رأسه وهي تقول" لقد قبلت الأقدام لكي تقبل في المدرسة وأنت تهرب منها، لقد كانوا سيشطبون على اسمك منها"، بعدها سلمتني للمعلم الذي على غير عادته لم يتفاعل بطريقة عنيفة.

الفصل الرابع

نلهوا ونضحك رغم مأساة كل شيء

في بعض الأيام التي كانت تصادف عيداً أو عطلة كنت أضرب موعداً مع" خالد "أحد أصدقاء الحي، لقضاء يومنا في الشاطئ الصخري القريب من سكنينا، وكان موعدنا غالباً في السادسة صباحاً فأمي تستيقظ لعملها الجديد مع الخامسة إذ الآن تشتغل في إدارة عمومية وهو ما يعتبر تطوراً في مسيرتها المهنية، كمنظف مكاتب تجارية. توقظني أمي وتغادر، ألف نفسي بغطاء مترقباً من الشباك الصغير خروج خالد، ها هو قادم من بعيد فبشرته السوداء كانت تؤكد لي هويته وأصحاب البشرة الداكنة كانوا معدودين في حينا، منهم صديقاي" خالد "، "طارق"، لكننا في الحقيقة لم نهتم فعلاً بهذا التفصيل كعدم اهتمامنا بالجنس أو العرق،" خالد " كان لطيفا تبنته سيدة صارمة تحسن التربية والاعتناء به، تمنيت كثيراً لو شاركني تجربتي في" أرض البشر " بعد لقائنا نشق الطريق في ضوء الصباح الخافت ، متعرجين من زقاق نحو آخر، إلى أن وصلنا لبائع تبغ يبيع بعض معدات الصيد، لنحصل على حاجتنا المختصرة، على صنارة ومثقال وخيط صيد، الكل بثمن درهم وكما جرت العادة نتقاسمها مناصفة لنقلل من الأعباء كشركاء مثاليين .

تبقى أهم لحظة والأكثر إثارة تلك التي نبدأ فيها الاقتراب من البحر، ونحن نخمن حاله بين مد أو جزر، وكم تكون الفرحة عظيمة كمن ربح اليانصيب، عندما نجده جازرا أو كما ننعته بالهارب، وكل الصخور مكشوفة، فنبدأ في الجري والتسابق عليها حتى نصل إلى نقطة التماس مع الأمواج كرجل يتلهف لرؤية أجزاء المرأة المستورة .

نبدأ في تفحص تلك الصخور بلونها المميز وبكثرة الكائنات التي تعيش فوقها، و بعد التنزه يبدأ الصيد بعقد الصنارة و المثقال و البحث عن الطعم الذي يكون عبارة عن لب حلزون بحري صغير، نصطاد به اسماك صخرية غير صالحة للأكل نستعرضها فقط في قنينات بلاستيكية صغيرة، كالعادة حصة الصيد تنتهي بعلق الصنارة في احد الصخور و إنقاع الخيط، لنطلق السمكات بعد عدها لنعرف من منا كان أحسن صياد، و نتفرغ لجمع بلح البحر و سلقه في احد أوعية الصباغة القديمة مستعينين بأحد المرتادين لأخذ علبة الكبريت من عنده، بعد أكل المحار الطازج و المالح بسبب ماء البحر، يكون النهار قد قارب على النهاية لنرجع متعبين نمشي بصعوبة متشوقين إلى غرفنا، نتبادل الحديث عن الرسوم المتحركة و الدراسة و الأصدقاء و التي في الغالب تكون قصصا مبالغ فيها لإبهار الآخر .

ذات صباح سلّمني المعلم بطاقة حمراء عليها اسمي للاستفادة من المطعم المدرسي الذي أنشئ حديثا في المدرسة، وكوني بلا أب فقد كان أحد المعايير التي تخول لي الاسبقية في الإطعام، والواقع أنني لم أركز في الحصة الدراسية كما يجب فقد تخيلت المطعم ووجباته التي بالتأكيد ستشبه وجبات" أرض البشر "قبل عصر الديدان والخبز الذي أتت به نهضة" السعدية ".
فور انتهاء الحصة خرجت متوجهاً إلى المطعم لأستفيد من الامتياز، وكان أول ما صادفته هو حاجز الحارسة التي تطلب بطاقة العضوية، وبدأت ابحث عنها مرتبكاً إلى ان وجدتها في أحد ثنايا الحقيبة، لأريها لها بكل فخر، فألج القاعة.
وضعت لي مع أطفال آخرين، من أصحاب الامتياز مثلي، والذين يستحقون الدعم لظروفهم الاجتماعية الخاصة، صحنا بلاستيكيا ملأته بحساء البازلاء المجففة وقطعة خبز، كانت خيبة أمل كبيرة، فلقد أضعت وقتا كان من الممكن ان اقضيه مع التلاميذ في الطريق

أو حتى في مشاهدة التلفاز .في اليوم الثاني عند انتهاء الحصة ذكرني المعلم انه عليّ الذهاب إلى المطعم، ولأنه كان يخيفني، اضطررت إلى التلبية وتناول صحن" الشعرية بالحليب"، ليتحول ما تخيلته امتيازا إلى مأزق، فاخترت طريقة التمويه، فبعد ان اسلك طريق المطعم أراقب انشغال المعلم او عدم وجوده لكي أتسلل للعودة إلى البيت، وهكذا إلى ان تقادم الموضوع ونسيه ونسيته أنا أيضا، إلى ان أخبروني يوماً ان التجربة الرائدة أُلْغِيَتْ من المدرسة. أما بالنسبة لي فلم أحاول معرفة الأسباب رغم شخصيتي الفضولية فهو لم يكن مطعماً أصلاً بل قاعة حساء تصلح لعقاب المشاغبين وليس لمساعدة اليتامى شاكلتي .

بعد ان اندمجت مع مجموعتي في الحي بدأت تقل نشاطاتي مع أمي، فعلى خلاف هذه الأخيرة كانت برامجنا كلها مجانية ولا تكلف شيئا على الأقل بالنسبة لنا .كسرقة المصابيح الجانبية للسيارات التي كنت أنا من علمهم طريقة نزعها، لكننا لم نستمر كثيراً في ذلك لسبب بسيط و هو ان تلك المصابيح لم تكن تشتغل عند ربطها بالبطاريات الصغيرة، وكنا نقضي أيضاً وقتنا في الحدائق العامة نبحث عن العصافير و الحلزونات و نتسلق الأشجار و نبني مساكناً معلقة بها، ومع توغلنا أكثر في استكشاف المدينة و الأماكن التي من الممكن ان تصلح لنشاطاتنا، وصلنا إلى نقطة بعيدة عن حيينا و هي حديقة الألعاب، التي كانت تأخذني لها أمي، فوجدنا بمدخلها احد الأطفال يتسول مبلغ التذكرة فاقتربت منه لأفهم القصة ، فقلت له لماذا تتسول ثمن التذكرة فالدخول ليس بهذه الأهمية، فأجابني بتهكم ان الدافع هو النقود و ليس الولوج، فأعجبتني الفكرة التي تبنيناها كلنا، و بدأنا نتجول قرب بائع التذاكر نردد" من فضلكم من يساعدنا على إكمال ثمن التذكرة"، فتجاوب البعض معنا وامتلأت جيوبنا بالنقود مما جعلني اختبر متعة جديدة غير التي كانت تربطني بالمكان عندما كنت أزوره مع أمي، فجيبي الآن به دراهم عديدة

تمكنني من اللعب أضعاف المرات ما كنت العبه وأنا برفقتها، لكن الرغبة اختفت بالكامل كأن شيئا لم يربطني بالمكان قبلاً.
حديقة الألعاب لم يكن المكان الوحيد الذي تغيرت صفة زيارتي له، فالعادة جرت انه في أول أيام عيد الفطر كنا نرتدي الملابس الجديدة ونهنئ الجيران بالعيد لنحصل على بعض الدراهم، كنا ندفع بها ثمن تذكرة السينما، وأول شريط كان لي بسينما" لارك "حيث كان السيد" حسن "يقف كل صباح ليوزع عطاءه على أطفال" أرض البشر ".
بعد ان كنت أمر من أمامها دون ان اهتم بوظيفتها، صرت من روادها، شاردا بين الأطفال لا اعي ما يجب عمله، لكن لحسن الحظ، فمرافقة" رشيد "لنا جعلته يتكلف بشراء التذاكر وكل الإجراءات لأنه أكثرنا خبرة؛ بمجرد دخول القاعة انطفأت الأضواء فلم اعد أستطيع رؤية من يجلسون بالقاعة، وتقليد البث آنذاك هو مشاهدة شريطين متتاليين أمريكي وهندي، وحسب كلام" رشيد "فقد كانت سينما "لارك "معروفة بأفلامها الجنسية.
بعد مشاهدة مطولة باغتتنا اللقطة الساخنة وهي مشهد لمؤخرة إحدى الممثلات، المشهد الذي اختفى بسرعة تاركاً وراءه جوا من الهستيريا والصخب والصفير، بعد انتهاء الشريط الأمريكي تلاه الهندي بعد هنيهة، لكني لم أكن معتادا على هذا النمط من الأفلام لأنه لم يكن يعرض في التلفاز الرسمي. في الحقيقة لم اهتم بالشريطين أكثر من اهتمامي بقاعة السينما التي كان الدخول إليها مغامرة جديدة بالنسبة لي، مباشرة عند نهاية البث إنتقل بعض الأطفال إلى الجري واللعب فوق مقاعد القاعة ليتدخل السيد "حسن "بالصراخ والوعيد على المشاغبين، فما كنت إلا ان أقول لأصدقائي ان ذلك الشخص اسمه" حسن"، لكن من كان يهتم باسمه. أما أنا فبقيت متردداً في الذهاب لإلقاء التحية عليه مخاطباً نفسي" لو كنت أعنى له شيئاً لكان قد تعرف علي وبادرني بالتحية ."
عجيب هو الإنسان فهو يعيش مراحل حياته ويتشاركها مع أشخاص

يتحولون فيما بعد لغرباء، كأنه يترك هو نفسه أجزاءً منه في حقب متنوعة من ماضيه، لا يمكنه استرجاعها.
الابتدائي الثالث كسر روتين العامين السابقين من الدراسة بمعلمتين عوض معلم واحد وبأول دروسي في اللغة الفرنسية.
معلمة الفرنسية سيدة أنيقة ولطيفة، كانت حصصها تمر مرور الكرام، رغم صعوبة أول احتكاك لي بلغة أجنبية لكن هدوءها كان يخلق نوعاً من التوازن بداخلي، مع التلاميذ ابتكرنا أسلوبا للتغلب على عدم الألفة الذي طغى على مشاعرنا فبدأنا في كتابة النصوص الفرنسية بحروف عربية لنتمكن من قراءتها وحفظها، أما حصصي عند" علاف "معلمة المواد العربية فكانت على غير ما يرام، فيبدو ان التيار لم يكن يمر جيداً مع المعلمة، رغم أنها تتباهى كثيرا بفعل الخير و مساعدة الأطفال المحتاجين فهي لم تحاول يوماً مساعدتي بل بالعكس كانت توجه لي انتقادات بقولها ان لقب أمين القسم لا يصلح لمثلي بل يصلح لتلميذ مثل" الصافي "صاحب المظهر المرتب، أما أنا فلم أكن اهتم كثيراً باللقب، فهي كانت تستطيع ان تعطيه المهمة عوضاً عني لكنها كانت فقط تغازله على حساب مشاعري لتتودد له لان أسرته تحضر لها الحلوى و القهوة في المناسبات و يجاملونها متى ما تمكنوا من ذلك، اما أنا فلم تكن لدي أسرة كبيرة كأسرته أو وضع مادي يسمح لي بذلك، و مظهري الذي لم يكن يعجبها، فكان أحسن ما استطاعت أمي ان تؤمنه لي. في أحد الدروس التي كان موضوعها الأخ، قالت لي ان أمك ترتكب خطأ كبيرا بعدم إنجابها لك أخا أو أختا، فذهبت لأخبر أمي أني أريد أخا فأجابتني" من أين اجلب لك أخا؟ هل اجلبه من الشارع؟"، لم افهم فعلاً قصدها لكن يبدو ان الموضوع ليس بتلك السهولة .
الوقت مع معلمة العربية لم يكن ممتعاً لدرجة أني كنت اقضي وقتي في الطريق إلى المدرسة وأنا أصلي ألاّ تحضر، ولم أكن الوحيد في ذلك فبعض التلاميذ كان يجلب شعرة حصان ليضعها لها في مقعدها كنوع من التعويذات كما كان متداولاً ليتغيب المعلم .والذي يبقى بلا

تفسير هو أنها كانت تنجح في العديد من المرات، في الحقيقة كان اختبار الأذى النفسي محبطا فهو على عكس نتائج العنف البدني الذي كان يدفعني الخوف منه إلى بذل مجهود للتفوق كي أتجنبه، بخلاف العنف النفسي الذي كان يخلق بداخلي إحساسا عميقا باللاجدوى والرغبة الملحة للاستسلام.

يوم الأحد جلب معه تعزية عظيمة بزيارة" ماما حليمة "لنا في الغرفة، لكن كما يبدو فإن الأمور لا تسير معها على ما يرام فقد كانت محبطة هي الأخرى فهي تحكي لأمي انه حدثت مستجدات كثيرة" بأرض البشر "فلقد فصلت" السعدية "من منصبها كمديرة بسبب سوء إدارتها لميزانية الروض، فعوضت بمديرة أخرى كان من مجمل قراراتها إبعاد خديجة" المعوجة "لمصحة الأمراض العقلية بمنطقة اسمها" العنق "و هي مصحة سيئة الصيت لا تعدو كونها سجنا للمرضى العقليين أما" خديجة "فلم تكن مريضة عقلياً و لكن معاقة، وأيضا تلك المديرة لم تكن تقيم العاملين حسب الكفاءة ولكن على حسب المحاباة تجاوبا مع التملق الذي يبديه لها بعضهم.

كل هذه العوامل جعلت ماما" حليمة "تفكر في الهجرة مستحضرة السلبيات، عازمة على تحقيق هدفها. أحسست وأنا استمع لحديثها مع أمي وأقاطعها بأسئلتي وملاحظاتي لتجيب عليها انني لم اعد ذلك الطفل الصغير، فقد كان لي الكثير لأحكيه لها، لكن استرسالها في الكلام وملامحها المكتئبة قتلت رغبتي في الفضفضة، مع هذا كنت راض لان تجاوبي معها يجعلها تتحدث أكثر.

زيارة ماما حليمة تحولت لقضاء يوم كامل رفقتنا، طبعاً استغليت الفرصة لأسألها عن أصدقائي، لكنها لم تكن تعرف عنهم الكثير سوى" حلوة "التي قالت لي أنها كبرت وصارت لبقة في الكلام وتتصرف جيداً، أحسست رفقة" ماما حليمة "أنها مثلي تحس بالغربة وتشارك معي نفس الملجأ فقضاؤها ليوم عطلتها في غرفتنا الصغيرة يظهر كم ان العالم في الخارج بدا ضيقا عليها؛ من كان يعتقد أننا يوم اصطففنا لوداع مدير الروض السويسري، ودعنا معه

عالمنا، ومن كان يعتقد ان بداية أشغال" السعدية "بالروض كانت بداية الدمار.
انتهى اليوم، لم أستطع ان أفترق مع" ماما حليمة "والدموع تملأ عيني؛ هدأت حزني بوعدها لي أنها ستكرر الزيارة كل أسبوع .لكن الأسبوع صار أشهرا ولم تأتي .سؤالي لأمي المتكرر دفعها للذهاب إلى الروض لتعرف أحوالها فرجعت لي بخبر مخيب، بإبلاغي أنها ذهبت لسويسرا، أحسست مع الخبر بيتم جديد فمن أحبهم ينقرضون من حولي الواحد تلوى الآخر تاركين فراغاً لا يعوض في عالم مليء بالقسوة، فبعد ان كنت أعزي نفسي بزيارة آبي لي يوماً ما، صرت احلم بان يأتي يوم تتفقد أحوالي" ماما حليمة "من جديد.
شمس الصيف حلت مكان غيوم سنة صعبة، وكعادة معظم العطل الصيفية آو العطلة الكبيرة كما اعتدنا ان نلقبها، اقضيها مع الأصدقاء في الحي ومشاهدة التلفاز، فلم تكن إمكانياتنا تسمح بالسفر وعلاقاتنا في الحي هي الأخرى كانت تحكمها معادلاتها المتقلبة.
في صباح يوم كنت فيه مقاطعاً للمجموعة ذهبت إلى الحديقة لوحدي، وبينما أنا قاعد على أحد الكراسي، جلس بقربي رجل، كوني أحب الحديث مع البالغين، استأنست بالتكلم معه، فأعطاني بضعة دراهم، لأشتري لنا حلوى بالقشدة، تناولتها معه وأنا سعيد يملأني الإحساس بالعرفان فهو عاملني أفضل من أصدقائي الآخرين، بعدها افترقنا مودعاً إياه بعد ان ضربنا موعداً في اليوم التالي كأصدقاء حقيقيين.
وكما وعدته ذهبت للقائه وقد وجدته في الحديقة ينتظرني، عرض على ان نذهب لمشاهدة شريط سينمائي، فقبلت وكانت أول مرة اذهب للسينما خارج أيام العيد .ونحن في الطريق تبادلنا أطراف الحديث وكانت أول مرة يسألني عن أبي فأجبته انه بحار ومتغيب طوال الوقت، أما هو فقد كان يتحدث عن كونه لا يحب مصادقة الفتيات لأنهن كثيرات المشاكل، بعدما دخلنا قاعة السينما بدأنا

مشاهدة الشريط وبدأت معه حركات غريبة لم استوعبها لكنها لم تكن تبعث لي بالراحة، فقد كان يمرر يده على فخدي ليصعد في كل مرة أكثر نحو مناطقي الحساسة فمنعته عارضاً عليه ان أمسح أنا على فخده لكي أتخلص من هذا الموقف الخانق، فقبل بذلك لكن بعد ان اعتقدت ان الموقف المحرج انتهى همس لي في أذني ان احك له في الأعلى أكثر، عندها تأكدت ان حركاته كانت مقصودة وليس سوء ظن مني، فأجبته بالرفض فقال لي انه سيعتني بي و يشتري لي كل ما أريد، فرفضت بحزم لينسحب من جانبي و يختفي في الظلام .
بعد ان اشتعلت الأضواء توجهت نحو المخرج، وأنا أتنفس الراحة كمن يغادر متاهة قاتلة.
المعلمة" سنيني "نحيفة يشبه قوامها عارضات الأزياء، معلمة المواد العربية للقسم الرابع ابتدائي كأنه الربيع الذي يخلف أوراق الخريف، فهي التي ردت إلي الاعتبار، لا اعرف سبب اهتمامها الكبير بي فقد كانت تعتذر مني حتى عندما ارفع يدي ولا تعطيني الكلمة وتعدني بأنها ستمنحني الكلمة في الحصة القادمة، ولا أنسى اليوم الذي طلبت فيه مني الاقتراب من مكتبها مخاطبة إياي" نبيل ستصبح يوما شيئا عظيما، أتمنى ألا تنساني."
بقيت مستغرباً، فلم افهم حقاً ماذا تقصد، لذا لم يكن عندي جواب لبق أرد به عليها، لكن لم يمضي وقت طويل، حتى وجدتني عند عودتها بعد غيابها لبعض الوقت، لقضاء أمر في المؤسسة، اركض فوق الطاولات مطاردا أحد الأطفال، فنادت عليّ لأجدد الوقوف بين يديها وأنا أتصبب عرقاً وهي تنظر لي بنظرات تملؤها الحسرة قائلة "الشجرة التي ظننتها مليئة بالتين وجدتها مليئة بالناموس" لكن على خلاف الموقف السابق فقد فهمت قصدها.

بالمقابل أستاذ المواد الفرنسية كان شخصا صارما يقضي وقته في تناول السكريات بسبب إصابته بحرقة في المعدة على حسب قوله، فلكثرة تناولها وجد انه من الصواب مشارك الموضوع معنا لكي لا

يقع فريسة تخمينات خاطئة، لكن رغم صرامته كان شخصا جديا في عمله، و حنونا فقد كان يربت على كتفي و يقول لي" لا تخف يا ابني "كلما ارتكبت خطأ في القراءة وهو بجواري، وقد امتدحني عند زيارة المعلم" عصمرة "له وقال اني فتى مؤدب، لينتقلا لمناقشة موضوع أصولي العراقية ولعدم الحاجة ان يتنقل ملفي المدرسي مع الكم الملفت للوثائق التي تثبت هويتي لأنه ليس هناك حاجة لذلك.

يبدو ان سخرية القدر شاءت ان تتناوبني السنوات السيئة والجيدة، فالسنة الخامسة ابتدائي كانت سنة صعبة بسبب معلم مهووس بالإعراب ومتقلب المزاج لا يكاد يفارق قطعة التعذيب الخاصة به المتمثلة في أنبوب بلاستيكي برتقالي اللون مخصص لتمرير الأسلاك الكهربائية في الحائط عند البناء، وقد كنا نخمن حالته المزاجية بنوع السجائر التي يدخن، مثلا إذا كانت نهايتها اسفنجية صفراء فهو سعيد وإذا كانت نهايتها بيضاء بدون مصفاة فهو في حالة مزاجية صعبة، وممكن ان تتحول جملة بسيطة في حصصه إلى مأزق للجميع.

على سبيل المثال، اليوم سنبدأ مادة النشاط العلمي، وبعد ان كتب عنوان الدرس، بدل الدخول في موضوعه طلب من التلميذ، اعراب ما كتب، وطبعاً يعجز، فيعنفه وينتقل لنا بالسؤال والتعنيف الواحد تلو الآخر، وهكذا هو سير الدروس معه .

بالإضافة إلى عاداته الغريبة والتي يتمثل أحدها في قارورة دواء يشرب منها لمرات متعددة عكس ما هو متبع في استخدام معظم الأدوية، وقد كانت إشاعة تروج ان القارورة كان بها خمر، وفي الحقيقة فقد كنا نلحظ هدوءه عندما يكون تحت تأثير الدواء .لكني اعتقد ان هذه الإشاعات لم تكن بعيدة عن مسامعه، لأنه في موقف على غير عادته طلب من أحد التلاميذ ان يقرأ أمامنا وصفة أحد الأدوية التي كان يستخدم وهي معجون ضد التهاب الفم، لكنه تجنب مناقشة القارورة الصغيرة مصدر الشبهات.

معلم المواد الفرنسية لم يكن مهتما أصلاً بتعليمنا، عدا جدول الضرب الذي نختبر فيه مع بداية الحصة، وكان الاختبار يمر بمشاركة تلميذين كل واحد يسال الآخر أربع عمليات بالتناوب، وفي الغالب كنا نتفق على الأسئلة لكي نهرب من العقاب، عدا ذلك فهو كان كثير التغيب لمشاركته في حفلات الطرب الأندلسي كونه عضواً في أحد فرقها، مع تحفيزنا لنتعلم حرفة لتأمين مستقبلنا فالدراسة ليست كل شيء في الحياة،
الشيء الذي أزعج أمي عندما أخبرتها به، وكونه فنانا فقد لقنا نشيدا يمدح فيه الملك عوض ان يقوم بعمله في تعليم شعبه.
إنها السادسة ابتدائي، آخر سنة لي في المدرسة الابتدائية، التلاميذ يتكلمون على ان نظام النجاح يختلف عن الأقسام الأخرى، ويحسم فيه بامتحان نهاية السنة الدراسية، ولا يتدخل في محتواه معلمونا، بالنسبة لي السنة تبدأ في جو إيجابي لان معلمي المواد العربية والفرنسية لا تحوم حولهما شائعات مخيفة في فنون العقاب، وكم كنت أخشى الدراسة على يد احد المعلمين المشهور باستخدامه حزام محرك السيارة في ضرب تلاميذه وكانوا يلقبون الحزام "بمسعودة التي تشفي من البرودة ".
معلم المواد العربية متدين كثيرا في مظهره وسلوكه، هو أيضاً يعرج على مسارات جانبية، كالمعلم الذي كان ينقلنا من مادة النشاط العلمي إلى الإعراب، ونبقى نحن عرضة لهوسهما، كيفما كان الحال، إلا ان هوس المعلم الحالي كان مسلياً بطريقة عرضه الهزلية، فيحور الدروس الى وعظ وقصص التي يمرر بها خطابه الديني، التي لم أكن أستطيع فهمها، كطريقة التعامل مع الحياة الزوجية .وعلاقتنا مع الشعوب من الديانات الأخرى، فهو كان يتكلم علينا كشعب عظيم، الشيء الذي لم أكن مقتنعا به خصوصاً أني أشاهد التلفاز كثيراً، مما جعلني اسأله لماذا هُم متقدمون ويعيشون حياة أحسن منا، فكانت إجابته ان الله سخرهم لنا وان تقدمهم لخدمتنا وان الدنيا لهم والآخرة لنا.

في الحقيقة بدأت أفكر في الأمور بتفصيل أكثر، كان عقلي قد بدأ يطرح أسئلة لم يفكر بها من قبل، فبدأت أفكر في الله وكيف انه خلق العالم وكيف لم يخلقه أحد ولأني لم أكن أجد أجوبة، ناقشت الموضوع مع" رشيد "كونه الأكبر سناً والأكثر الماماً بالأشياء خصوصاً انه كان يملك قصصا كثيرة شيقة وروحية عن السحر والعفاريت، لكن جوابه كان مقتضباً في انه ليس من حقي مناقشة أمور غيبية وأني اعرض نفسي لعقاب الله، فكان جوابه لوناً مظلما أطفأت به كل أفكاري فأنا لا أريد الذهاب لجهنم بسبب تساؤلاتي.

في الصف كان معنا تلميذ أبوه صديق للمعلم وقد كان له الفضل في إرشادي للانخراط في قاعة المطالعة، وكان أول أعمالنا المشتركة هو عرض مجلة حائطية، تختلف فيها المجالات، مثل عجائب الدنيا السبع وغيرها، لتعليقها في الفصل لتعم الفائدة، ورغم المجهود المبذول فقد كان الوقت يمر في أجواء هادئة بسبب طبيعة القاعة الصامتة.

بعد أسبوع من العمل حانت اللحظة المنتظرة لنسلم عملنا للمعلم، فاستقبله بالثناء المنحاز للتلميذ الآخر، مع تعليق عمله في الحائط ووضع عملي في الخزانة مع المهملات، رغم ان أعمالنا لم يكن ما يميزها عن بعضها كون كل موضوعاتها منقولة من نفس المصدر.

لقد استطعت ان أنسى الم الضربات من اجل الإعراب الذي كنا أمامه سواسية، لكني لم أنس يوما هذا الموقف من رجل يتأبط الدين والخطابات الرنانة .

حصص المواد الفرنسية كانت قليلة التشويق كثيرة الروتينية عند معلمة متقدمة في السن غير مبالية وقليلة الانفعال، كمن يسمع نكته تكررت على مسامعه عدّة مرات.

زميلي في المقعد تلميذ متقدم في السن لرسوبه المتكرر، لم يكن يحاول إثارة المشاكل معي وفي نفس الوقت لم تكن لدينا الرغبة في تطوير زمالتنا، فقد كان يكتفي بممارسة العادة السرية في كل حصة مستغلاً وجوده في المقعد الأخير، بعيداً عن الأنظار، فكنت دائماً

محرجا بالأصوات التي كان يصدرها عند احتكاك اللعاب بعضوه التناسلي بالإضافة الي رائحة عرقه النفاثة .هكذا انتقلت بي المراتب من المقاعد الأولى في الصفوف إلى آخر مقعد بجوار العبث.
هذه الأيام في الحي تجري أمور غريبة فهناك إشاعة تتحدث أن أطفال في مجموعتنا لهم بيت سرّي في البحر .لكنهم يرفضون البوح بمكانه، والموضوع طي الكتمان بين" رشيد "و"طارق "و"خالد"، وهم يتأكدون من ان أحدا لا يتبعهم كلما توجهوا له .ولأني أتخيل الأمور بإيجابية قلت لطارق انه أمر جيد أنكم حصلتم على بيت بحري، فقد تأتي ساعة تساعد بها عائلتك إذا فقدوا المكان الذي يقطنون به، لكنه أجابني بإيماء دون الخوض في التفاصيل.
الفضول والغيرة يدفعان بي لأعرف المزيد عن البيت، فأنا لا أطيق ان أكون ضمن من قرر إخفاء الامر عنهم. فبدأت أتقرب أكثر من "طارق "واشتري له بعض الحلوى وآخذه للتجول معي كصدقاء حقيقي، ومع قضاء وقت طويل معي يوماً بعد يوم فهمت ان علاقته "برشيد "و"خالد "فترت على الذي كانت عليه. فبينما نحن جالسين على حائط قصير قرب الشاطئ الصخري، طلب مني ان اتبعه. ففعلت على طريق مبلطة بأتربة صناعية، تفصل بين الشاطئ الصخري وطريق للسيارات، فوصلنا بعدها لسفح كان علينا النزول منه لنتوقف أسفله أمام مغارة صغيرة لا تسمح بدخول أكثر من واحد، وأمامها مشواة بالحجارة وبقايا الأعواد المتفحمة .قال لي طارق إنه البيت السري .فانحنيت متفحصا شكله من الداخل، بعد الاطمئنان من عدم وجود حشرات او حيوان انبطحت أرضاً محاولاً دخوله على أربعة قوائم، لكني انسحبت مخافة ان تطبقني الحجارة على بغتة، فالوضعية بين الصخور العملاقة تشبه الاستلقاء في قبر .
بعدها عرض عليّ طارق ان نشوي البطاطا، فكان اول عائق الحصول على النار، لذا ذهبنا نبحث بين الصيادين بالقصبة إلى ان وجدنا أحدهم معه أعواد الثقاب، فعدنا إلى الكهف، بعدها اخرج طارق البطاطا المخبأة وأضرمنا النار ووضعناها عليها. ونحن منشغلون

بتقليبها فاجأنا طفل كبير متشرد، فهربنا تاركين كل شيء وراءنا وقصدنا أعلى السفح، نراقب الزائر الغير مرغوب فيه، وهو مستلق على ظهره يشم مادة لاصقة مخدرة، تستخدم في إصلاح مطاط هواء العجلات، عادة يقومون بطلائها فوق قطعة قماش او سكبها وسط كيس بلاستيكي لتستنشق عبر الفم أو الأنف.

بعدما فقدنا الأمل في ان يغادر المكان في وقت قريب تخلينا عن إمكانية تناول البطاطا التي شويناها، وقررنا العودة إلى حينا، ولم اسأل أبدا طارق لماذا سمو تلك الحفرة بيتا فأنا أيضا كنت أطلق على غرفتنا اسم منزل أمام أصدقاء المدرسة .

عوض قضاء وقتنا كالعادة في الحدائق العمومية والبحر بدأنا في مزاولة نشاطات مربحة مثل بيع الأكياس البلاستيكية في السوق، ومساعدة النساء في حمل التسوق، وانتقلنا بعدها إلى جمع الورق المقوى وبيعه لتجار إعادة التدوير، وقد كانت فكرة" رشيد "في الأساس، لكننا تبنيناها كمجموعة لنلف الشوارع مجتمعين و مقسمين إلى فرق، كل واحد منها يضم طفلين يحملان كيسا كبيرا، مهمتهما ملؤه، وكلنا متنافسون على من سيكون كيسه الأثقل ، وطبعاً ساعة الحسم تكون أمام ميزان ضخم موضوع بمدخل محل الخردة، لكن مع كبر الأكياس التي يوحي وزنها بالغنيمة الكبيرة فقد كان ينتهي غالباً التشويق بأثمنة هزيلة، لذا بدأت أفضل جمع الخبز المرمي أمام البيوت لان الكيلو غرام منه بثمن كيس ضخم من الورق المقوى، وسرعان ما تقمصت شخصية بائع الخبز اليابس وصرت اصرخ بين المنازل الراقية حيت يسكن الميسورون" خبز يابس؛ خبز يابس ".

اقتراب موعد الامتحان الفاصل للسنة الأخيرة من الابتدائي أنهى مرحلة تسكعنا وجعلنا نبذل مجهودا أكبر لنجتازه، فقد نبهنا المعلم أننا سنمتحن مع تلاميذ المدارس الخصوصية مما سيرفع الحد الأدنى لمعامل النجاح الذي سيقلل بدوره حظوظ التلاميذ ضعيفي المستوى.

اليوم تجمعنا أمام المدرسة، كالعادة منتظرين ان يفتح الباب الكبير لنجتاز الامتحان، وكغير العادة كان هناك التلاميذ الذين سيشاركوننا الامتحان من المدارس الخاصة، قادمين على متن سيارات خاصة، تتفقدهم معلماتهم بين الفينة والأخرى محملين بقنينات المياه المعدنية التي لم اعهد مشاهدتها حتى عند المعلمي مدرستنا.
إنفتح الباب ودخلت باحثاً عن القاعة التي سيجري بها الامتحان، وجلست في المقعد الذي عليه الرقم الخاص بي، بعدها دخل المعلم المكلف بالمراقبة ليوزع علينا أوراق الامتحان حسب جدول المواد، فدونت عليها اسمي ورقمي حسب التعليمات بكل جدية، منتقلاً من سؤال إلى سؤال أجيب ، دون ان التفت إلى أية جهة خوفاً من المعلم المراقب، إلى ان اقترب مني و نظر إلي و أنا لا اكتب شيئا حائراً في احد الأسئلة؛ فسألني ان كنت أحمل معي كتاب المادة الممتحنة فأجبته بالإيجاب، فقد كانت بحوزتي كل المقررات تحسباً لأي طارئ فربما احتاج ان أراجع مادةً ما .فنصحني ان ابحث فيه فأخرجته من محفظتي، بعدها خاطب التلاميذ ان يتعاونوا مع بعضهم في الإجابة عن الأسئلة، بينما أنا ابحث بين صفحات المقرر المدرسي وجدت درس السؤال فصحت في القاعة:
-أستاذ، أستاذ، لقد وجدت الجواب
-هذا جيد.
ولم يكن الامتحان الوحيد الذي مر بهذا الشكل بل ان كل المراقبين تركونا نغش في الامتحان كأن عندهم تعليمات بذلك، فتحول قلقي الكبير إلى فرحة وأنا أستنسخ كل الأجوبة من المقررات مع التلاميذ الآخرين فقد خلق الغش أرضية للتضامن، فحتى أصحاب المياه المعدنية كانوا يغشون معنا.
انقضى زمن التصحيح، وحلّ وقت تعليق النتائج، رافقني " محمد " ابن بقال الحي، أبوه يمسك محل بقالة صغير كانه بنك غداء الحي لان معظم الأسر كانت تقترض منه المواد الأساسية، وكانت تتوفر

على مذكرة صغيرة يدون عليها سجل المواد المستهلكة و مجموع الديون.
" محمد "أصر ذلك اليوم على مرافقتي، فلم أر سبباً للرفض، وقد كانت رفقته قاتلةً للوقت الذي أمضيناه أمام مدخل المدرسة منتظرين إنزال جدول أرقام الناجحين .وبعد ساعات من الانتظار لمحنا رجلين يصعدان على الحائط ومعهما لوح كبير يحاولان تثبيته ليبق معلقاً أفقياً، يمكننا من قراءته رغم الاكتظاظ، بعد ان أكملوا مهمتهم صار بإمكان الجميع البحث عن رقمه ومنهم أنا أيضاً ومعي "محمد "يساعدني، فكان أول من صاح" انه هناك نبيل، رقمك هناك"، فتتبعت ارشاداته نحو الرقم لأتأكد، يا لها من فرحة لا توصف، فعدت أنا و"محمد "نمشي ونجري وهو يتشارك معي فرحتي إلى ان وصلت البيت منتظراً أمي لإخبارها بالخبر السعيد.
المنزل الكبير الذي كان يحوي في طوابقه الأربعة العديد من الغرف، صار شبه صامت مع هجرة بعض عوائله للعمل في اسبانيا ومنهم عائلة ابن أصحاب المنزل، أما غرفة الأخوات فقد أقفلت بعد زواج السيدة المطلقة وباقي أخواتها، لكنها لم تتوقف عن سداد واجبات كرائه، مخافة من ان يفشل زواجها ولا تجد أين تذهب .والسيدة "ثريا "أم" فاطمة الزهراء "هاجرت إلى ليبيا، أما أنا فقد كنت استفيد من هذا الفراغ بلعبي وسط الفناء الذي يفصل الغرف، أضع إناء غسل الأطباق ممتلئاً بالماء واضع فيه قوارب الورق لتبحر فيه إلى ان تتبلل وتغرق، استخدم أيضاً الشباك الوحيد لتهوية الفناء وإنارته و الذي كان يشرف على خلفيات المنازل حيث استوطنت العصافير بين ثقوب الجدران، فأقوم برميها بالخطّاف، محاولا اصطيادها لكني لم أفلح يوماً في إسقاط أيٍ منها بسبب سوء رمايتي.
ينتهي هذا الروتين مع عودة الجيران لقضاء عطلة الصيف، فتذهب أمي لتبارك لهم عودتهم، فترجع ومعها أكياس صغيرة بها قطع سكريات وقهوة، التي كانت تختلف بنكهتها الجميلة عما نشتريه نحن هنا، اما أنا فيقل خروجي خارج الغرفة إلا للذهاب إلى الحمام،

فالجو غريب في الخارج لأني لم اعد أحس بانتماء الجيران إلى مجتمعنا بسبب تكلمهم مع بعضهم باللغة الاسبانية، فصرت أحس كمن يسكن وسط مجموعة من السياح .حتى" فاطمة الزهراء " صارت تتعامل معي كغريب لم تتشارك معه يوماً اللعب بالدمى والجري في السلالم.

الفصل الخامس

كُن مختلفاً حتى لا يفسدك التكرار

مبنى إعدادية" أبو القاسم الشابي "كان أكبر بأربعة أضعاف من مدرسة" الكندي"، يتوسطه أربعة ملاعب لممارسة الرياضة، على عكس المدرسة، الإعدادية كانت خالية من الأشجار حتى الغير المثمرة، ومع فساحتها و احتوائها على أعداد كبيرة من الأساتذة و التلاميذ كانت إدارتها كبيرة هي الأخرى و بها وظائف جديدة علينا كوظيفة" الحارس العام "و" المقتصد "إلى جانب" المدير "و "الكاتبات"، لكن كما سمعت من التلاميذ فهنا لن نعاقب بالضرب مثل الابتدائية، ولن نرتبط حتى بالألفة مع الأساتذة ، فالمواد تقسم على تسع معلمين عوض اثنين ، و يقسم عليهم استعمال الزمن بالساعات و ليس بالصباح، و بعد الزوال كسابقتي المدرسة.
هنا في الإعدادية لا أحد يطلب منك ان تجلب ولي أمرك إذا كنت لا محظوظا في مادة ما، بل يعرض عليك الأستاذ الانخراط في الدروس الخصوصية معه، وخصوصا مادة الرياضيات، لذلك كان معظمهم

يحرص على عدم بذل المجهود في مساعدة التلاميذ على الفهم ، بل تتحول دروسه إلى إلقاء وتدوين فقط، بدون لاهتمام بمساعدة تلاميذه على استيعاب المادة فتتحول الرياضيات إلى معادلة صعبة إلى جانب الفرنسية التي لا يتقن لكنتها جيداً الا تلاميذ المدارس الخصوصية؛ لكنها كانت سنة هادئة اندمجت فيها مع النظام الجديد، أتقاسم الطريق التي كانت تبعد عن حينا بنصف ساعة من المشي مع شابين احدهما كان يلقب" ببديعة "لأنه مثلي جنسياً، و يتصرف كالبنات أما أنا فلم أكن ألاحظ الفرق و لا افهم سبب نعته بتلك الصفات غير انه بخلاف باقي الأولاد فقد كان يقمشني و يجرني من شعري عندما أتشاجر معه لذا قررت عدم مرافقته في الطريق بعد ذلك، هكذا انقضت السنة الدراسية برتابة كبيرة دون أحداث مهمة، بخلاف السنة الثانية التي جمعتني بصديقين من الابتدائية هما" ياسين " و" حسن "و كانت السنة التي سأشاهد فيها أول شريط اباحي برفقة مجموعة من التلاميذ في منزل رفيقنا مجتمعين أمام تلفاز ضخم قديم بالأبيض و الأسود ننتظر ان يسخن حتى ينقل الصورة جيداً، فندخل الشريط في القارئ الآلي، كنا نتفرج و المكان يخيم عليه الصمت ، فقد كانت أول مرة نكتشف فيها كيف تمارس العلاقات الحميمية، و كانت بداية هوس صعب التخلي عنه مستقبلا، خصوصا مع انجذابي و نظرتي للجنس الآخر التي بدأت تتغير، و حتى نظرتي لنفسي و شكلي و لباسي و مظهري أمام الغير، و رائحة عرقي و تحولات جسمي، و لكوني لم أكن أجيد التحدث مع الفتيات فلم أكن استطيع تفريغ الكم الهائل من الضغط العاطفي و الجنسي الذي تصنعه الأفلام الإباحية التي صارت تملأ مخيلتي، فتحولت كمدمن يريد الحصول على جرعته الأولى بأية طريقة، فصرت كمن يبحث عن طريدة وسط الغابة واقرب طريدة كانت فتاة سمراء اسمها" ندى "ابنة جيراننا بالمنزل المجاور و كانت تقصد منزلنا لمساعدة إحدى النساء المسنات و المبيت عندها في بعض الأحيان، و كان يثيرني كثيراً صدرها الأسمر المنتصب و

مؤخرتها الجميلة، أتحين الفرصة لاقتناصها في السلالم، و هذا ما حصل بعد ان درست توقيتاتها الليلية، جلست في احد السلالم انتظرها ليلاً وسط الظلام، إلى ان حان وقت صعودها فقطعت عليها الطريق حاضناً إياها و طالباً منها البقاء لتستسلم بدورها لقبلاتي الأولى التي كانت فاشلة في التطبيق، فأنا كنت اقبلها كمن يلعق البوظة، و المس نهديها المستقيمين الصلبين و مؤخرتها الدائرية و أتسلل بين فخديها بيدي فترتخي كلما لمستها، في الوقت الذي كان قلبي يخفق بشدة في أول اتصال بهذا الشكل مع شخص من الجنس الآخر، وسط هذه المشاعر القوية، طلبت منها لمسي لكنها رفضت، و بكوني عديم الخبرة فقد اكتفيت بلمسها، دون ممارسة الجنس معها ولو سطحيا، آملا ان تتاح لي فرصة أخرى مثل هذه من جديد، الشيء الذي لم يحصل بعد ذلك أبدا، مما جعلني أكمل المشهد دائماً في مخيلتي، نادما على إضاعتي الفرصة، وعلى عدم تقبيلها بشكل صحيح .

فكرتي كانت أننا نحن الذكور نتشارك نفس الرغبة مع الإناث، لذا فلا ضير ان نتقاسم بالتراضي تلك الاحتياجات الجنسية، وفي الحقيقة كنت أتمنى لو كانت الأمور بهذه البساطة إذ لا اعرف كيف أتعامل معهن.

وسط هذه التحولات، كانت أمي تجمع الوثائق من جديد لتذهب إلى السفارة، هذه المرة مع إحدى الكاتبات في مكتب كانت تنظفه، التي عرضت عليها مساندتها في الإجراءات الإدارية، وكالعادة استلموا من عندها الوثائق ووعدوها بالكتابة لبغداد من اجل حل المشكل في وقت كان يعاني فيها العراق من الحصار المستمر بعد غزوه لدولة الكويت.

أمام هذا الوضع بدأ يختفي أمامي أي أفق لمستقبل مشرق، أو محرك يدفعني إلى الاجتهاد في الدراسة لأني بلا هوية ولا وطن، أعيش كالشبح تتقاذفني دولتان ككرة لعبة التنس، دولتان أقصى ما يمكنني الاستفادة منهما هو الحصول على بطاقة تعريف، في الوقت الذي

كانت فيه دول متقدمة تستقبل المهاجرين وتجنسهم، بعد سنوات قليلة من الإقامة، رغم الامتيازات الكبيرة التي يستفيدون منها كونهم مواطنين لتلك الدول.

السنة الثالثة إعدادي كانت أول سنة مختلطة نتقاسمها مع تلميذات، وفيها حلقت ذقني لأول مرة، وانخرطت في نادي رياضي لبناء الأجسام، وكنت افتخر ببطاقة النادي، كأني عضو في القوات الخاصة . رغم وجود الفتيات في قسمنا، إلا أنني لا اعرف بعد كيف احصل على حبيبة، رغم ان هناك إشاعات بوجود معجبات بي حتى بين فتيات القسم المجاور لكني لا اعرف اغتنام الفرص بسبب كوني غير لبق وتنقصني الثقة في النفس فقلبي اللعين يخذلني كلما حاولت التقدم بخطوة لخلق حوار مع إحداهن، لكن هذا لم يمنع من ان تكون لي علاقات زمالة مع بعضهن مثل" كريمة"،" خديجة " و"شيماء"، فكنا نتقاسم طريق الإعدادية معا أنا وزميل آخر يدعى "أشرف"، فكان يلقبنا باقي التلاميذ" بسائقي التاكسي "لأننا نكتفي فقط بمرافقتهن دون النجاح في تكوين علاقة حب مع إحداهن.

أستاذة الرسم هي الوحيدة التي رافقتني في كل سنوات الإعدادية، وكنت احصل عندها على نقاط جيدة مع التنويه، وقد لفت انتباهها، كون الصدفة شاءت ان تكون مدرستي الوحيدة لمدة ثلاث سنوات، فأجابتني بالقول أني تغيرت كثيراً ولم أعد جدياً كسابق عهدي، ومعها حق، فكنت اقضي معظم الوقت في التهريج والاستخفاف بالمدرسين كلما سنحت الفرصة، شاقا طريقي بكل ثقة نحو الرسوب.

أنا الذي لم يكن الفشل الدراسي في قاموسي يوماً، أجد نفسي متوجهاً لمصيري المحتوم بكل ثقة واستسلام، إلى ان زارنا رجل وظيفته موجه في التكوين المهني، يلج الأقسام مقاطعاً الدروس، ليملئ لائحته بأسماء التلاميذ المهتمين بإكمال دراستهم في أحد المراكز المهنية، وطبعاً كنت من بين المنخرطين في لقاء مبرمج من طرف إدارة الإعدادية، للقائه والاستفسار أكثر في الموضوع، فليس لي

مستقبل في الدراسة بوضعي الحالي، فحتى لو أكملت للمستوى الثانوي فليس لي بطاقة تعريف مرقمة حتى اجتاز امتحان البكالوريا.
في اجتماعنا معه قدم لنا تفاصيل أكثر عن الحرف التي من الممكن التخصص فيها، مثل التبريد والنجارة والكهرباء...، كان اختياري وقع على مهنة مصلح الأجهزة الكهربائية والمنزلية ظناً مني أني سأصلح الأجهزة الالكترونية لأني كنت أحب استكشافها وتفكيكها .وحتى الموجه أكد لي ان الفرع يشمل حتى الأجهزة الإلكترونية .فور انتهاء اللقاء سجلت اسمي على قائمته لاجتياز مباراة الالتحاق والذي نجحت فيها بسهولة مع ان التساؤل كان يساورني عن جدوى إجراء امتحان إذا كانت أصلاً الطبقة التي لم توفق في الدراسة هي المعنية بالتكوين المهني، فلماذا سيترك تلميذ نجيب دراسته ليتعلم حرفة بديلة عنها.
بعد ان تم قبولي في مركز التكوين المهني، لم اعد أبالي كثيرا بالإعدادية وما ينتظرني من امتحانات آخر السنة، ولا الامتحانات الدورية العادية، حتى أني نمت في احد امتحانات الرياضيات مما استفز المدرسة فحاولت التطاول عليّ بيدها فمنعتها كونها لا تملك أي حق في فعل ذلك، فغادرت الحصة بعد ان طلبت مني ذلك، إلا أنها لم تتوقف عند هذا الحد، فجلبت معها لحصة اللغة العربية مدير المؤسسة، ليطلب مني المغادرة و إحضار ولي أمري، هكذا انتهى مشواري الدراسي، إلى ان توصلت برسالة بريدية من الإعدادية، تخبرني انه نظراً لتغيبي المستمر بدون مبرر، سأمتثل أمام المجلس التأديبي، بعد ان أكملت قراءتها رميتها في كيس القمامة، فكيف لمن فشل في مهماته الأساسية ان ينجح في الفرعية، فقبل ممارسة حق التأديب هل مارسوا واجباتهم في التعليم ؟؟
فأنا لا أتذكر يوماً ان المدير زارنا أو اجتمع بنا ليستمع إلى مشاكلنا ودعمنا أمام المقصرين من الأساتذة أو حاسب أستاذا على ضعف مستوى تلاميذه، فالتلميذ بالنسبة لهم موظف مهمته تلقن الدروس وحفظها عن ظهر قلب والخضوع للأستاذ كعبد خوفاً من التعرض

للمشاكل، فليس هناك طرف يخلق توازنا منصفا يمنع أي انحراف عن الهدف الأساسي من التعليم .
قضيت الصيف في تربية الحمام كهواية جديدة، وأنا احلم بالوقت الذي سأبدأ فيه سبر غور الأجهزة الإلكترونية، معتقدا أني سأكون مقصد كل سكان الحي لأخذ المشورة من اجل مشاكل أجهزتهم، ولمَ لا أكون المصلح النجم الذي يقصده الجميع عندما يعجز الحرفيون الآخرون عن حل مشكلاتها. مع أحلامي المثالية عن مركز التكوين يبقى واقعي مع تربية الحمام غير جيد، فتربيتها في بيت مهجور ومهدم لتأتي الجرذان بالليل وتأكل الفراخ الصغار، وشريكي في المشروع من أبناء الجيران لا يتقاسم معي المسؤوليات، لذلك قررت التخلص منها عند اقتراب نهاية العطلة.
اليوم هو الموعد الذي طلبوا منا القدوم فيه لبدء الدراسة؛ نهضت مبكراً وأنا كلي حماس ثم امتطيت دراجتي الهوائية المستعملة التي اشتريتها ، وقمت بطلاء بعض الأجزاء منها بنفسي ، ولأني ضعيف الخبرة فقد طليت أيضا الاسفنجات الموجودة على المقود، فاتسخت يدي، مما جعلني أحس أني في مأزق، فلم يكن أمامي حل غير فركها مع جدران المركز الخارجية فور وصولي؛ بعدها اهتممت بالأشخاص المجتمعين أمام المدخل، بدأنا التعرف على بعضنا بالأسئلة مثل ما هو التخصص الذي اخترت ولماذا انتهى بنا المطاف هنا كأننا سنتشارك زنزانة وليس الدراسة .لكن أحد المشاركين بالحديث قال لي ان تخصصي ليس به أجهزة الكترونية، لأن هناك فرق بين الأجهزة الالكترونية والأجهزة الكهربائية والمنزلية، لكني لم استسلم لكلامه محاولاً تفسير الموضوع من جوانب أخرى، تبقي الأمل قائماً في غياب تأكيد رسمي من أحد الإداريين أو الأستاذ الذي سنعهد إليه .
بعد الانتظار لمدة ساعة تقريباً والباب لم يفتح، يأتي حارس المكان ليخبرنا ان الدراسة لن تبدأ قبل الأسبوع القادم، دون أي تبرير، عند

تلك اللحظة أجزمت ان ذلك المكان أسوء من تجاربي بالمدارس، فحتى مواعيدهم لا يحترمونها.
مر الأسبوع بسرعة، لكن هذه المرة توجهت سيراً على الأقدام، فأنا لا يمكنني الوثوق بعد بدراجتي الهوائية لكونها كثيرة الاعطاب ومعظم اعطابها تستوجب التدخل اليدوي مباشرةً وأنا حريص على الحضور في هيئة نظيفة ، حتى لا يأخذ عليّ أحد نظرة سيئة، فور وصولي وجدت الباب مفتوحاً و مكاتب الإدارة مليئة بالموظفين و تعج بالحركة، قصدت احد المكاتب لأسأل عن الصف الذي سأدرس به، فوجدتهم منشغلين بحديث إحدى الموظفات التي تتشاور معهم كون الشقة التي تملكها، يتكفل زوجها بدفع أقساطها ،و بالتالي تخاف أن يمكنه القانون من الاستيلاء عليها، فما كان عليّ سوى الانتظار إلى ان تنهي حديثها حتى لا أقاطعهم عن مادتهم الدسمة، فأخرجت إحدى السيدات رأسها مائلا لتنظر إلي من وراء المتحدثة سائلة إياي عن حاجتي، فطلبت منها إرشادي للقسم فنظرت في اللائحة و أعطتني رقمه، لكني صرت مشغولاً أكثر بحديث السيدة الأولى التي تحكي عن زوجها للغرباء في الوقت الذي يقوم فيه بدفع أقساط بيت ليس في ملكه، مع العلم أنها لا تحتاج لخبير قانوني لكي تعرف ان ما يقوم به ليس وراءه أي سوء نية .لقد ذكرتني قصتها بيوم أردت ان أطعم أحد القطط فاشتريت له جبنة، وفيما أنا أمد يدي له، تقوم بسحبها بمكر مسببة لي جرحاً عميقاً في أصبعي .أظن ان زوج السيدة سيكون جرحه عميقاً هو الآخر لو سمع حديثها.
توجهت إلى القسم لانتظر في مدخله مع مجموعة من التلاميذ على ما يبدو أنهم زملائي الجدد غالبيتهم كبار السن مختلفون عن تلاميذ المدارس لأنهم ينتمون للطبقة المهمشة والتي لم تنجح في الدراسة، بعد عشر دقائق تقريباً أتت سيدة فتحت الباب وطلبت منا الدخول، بلا شك إنها المدرّسة .فور استقرار الجميع بمقاعدهم بدأت في التعرف علينا الواحد تلو الأخر إلى ان وصلني الدور، بعد ان

أجبتها عن عمري وكوني لم ارسب من قبل، خاطبتني انه لم يكن علي القدوم هنا وانه عليّ الرجوع للدراسة، فأجبتها بحماقة أني هنا لتمضية الوقت، فكانت بداية غير موفقة جعلتها تضعني ضمن قائمة المستهدفين من طرفها لتصفيتهم من القسم لتقضي سنة مريحة دون عناصر مشاغبة تقض مضجعها.
بعد التعارف شرحت لنا البرنامج وان سنتيّ الدراسة ستقسم إلى عام ندرس فيه الكهرباء وآخر لإصلاح الأجهزة المنزلية، وطبعا الموجه لم يكن دقيقاً أو ربما لم تكن عنده المعلومة الصحيحة فليس هناك أجهزة الكترونية، بالإضافة لتوقيت الدراسة الذي يبدأ من الساعة السابعة صباحاً حتى الساعة الواحدة بعد الزوال، وتقسم الحصص بالتناوب بين صباحية ومسائية تمتد من الساعة الواحدة إلى السادسة مساءً.
تأملها بعض الوقت فينا جعل أحد التلاميذ يسألها عن الخطب، فأجابته:
-أتتأمل كم ان واقعكم مر فالهدف من توجيهكم إلى هذا المكان هو إبعادكم عن الشارع لمدة سنتين لتجدوا أنفسكم أمام المصير المؤجل.

عند قدوم فترة الاستراحة استغليتها للتعرف على الفصل والتوجه إلى نقطة في أقصاه حيث توجد ورشة صغيرة للتمارين التطبيقية، عند اقترابي من آلات الغسيل تفحصتها فلم أجد بها حياة فهي فارغة من محتواها ولم يبقى بها سوى الإطار الخارجي، ومع هذا يفضلون الاحتفاظ بأنقاضها لحفظ المظاهر أو ربما أنهم معرضون للمحاسبة عن تلك الآلات على الأقل إطارها الخارجي ليثبتوا أنها لم تختلس من المؤسسة، أما محتواها الفارغ من الداخل فهو يثبت فقط انه ليس لنا شيء نتدرب عليه وطبعا هذا أمر لن يحاسبهم عليه أحد كمحاسبتهم على ضياع الجهاز.

من الأمور الغريبة ان الدروس بالفرنسية فقط، مع العلم انه حتى في المدرسة، المواد تدرس بالعربية، فما بالك مع مجموعة لم تنجح في مسارها التعليمي بلغتها الأم. فتحولت حصص التعلم إلى انتظار للأستاذة ان تنهي إلقاءها للدرس، لكي تدونه بعدها أمامنا لننسخه في دفاترنا، وبعدها تذهب لزيارة زملائها او يأتون لزيارتها حتى يكسرون من رتابة الساعات الطويلة، ونحن بدورنا نخلق جوا من التسلية بتشارك النكت والحديث مع بعضنا حتى تنتهي الست ساعات التي تشبه مدة إعتقال.

المجتمع الجديد الذي كان علي الانصهار بداخله لم يكن فيه مكان للتذاكي، فاختفت نجوميتي، فليس هناك مواضيع أستطيع مناقشتها معهم او مع المدرّسة، مما جعلني كدخيل يتعلم كيف يصرف الوقت في اللاشيء، وهذا جعل الأستاذة تتخلى عن استهدافي في الوقت الذي غادر عدد من التلاميذ المركز، بسبب اختلاقها لشتى الحيل لكي تبعدهم، أما مدير المؤسسة فلم يتخذ أي إجراء أمام ذلك التسرّب، سوى انه ناقشها في الموضوع نقاشاً لا يغير من الواقع شيئا، في الوقت الذي يأخذ فيه تدابير صارمة عندما يتعلق الأمر به شخصياً ، مثلما فعل مع أستاذ ناقشه بحدة فقام بمعاقبته و نقله إلى مركز بعيد .

الحجة للسفارة تناديني من جديد لأبدأ بجمع لوازمها من الوثائق، لكن هذه المرة رفقة محام نصحوا أمي به، كاتبته أكدت لأمي على ضرورة ان يكون هندامي مشرّفا؛ كأنّ الوثائق وحدها لا تكفي! وكالعادة أمي لم تبخل بتلك المصاريف الإضافية.

حسب الموعد الصباحي، التقيت بالمحامي أمام مكتبه لنذهب بسيارته، و كانت أول مرة ازور الرباط بسيارة خاصة، نتجاذب أطراف الحديث في مواضيع مختلفة إلى ان وصلنا إلى السفارة و توجهنا إلى مكتب الاستقبال، محيطين الموظف بموضوع زيارتنا، فطلب منا الانتظار مع مجموعة من العراقيين المراجعين، فبدأ المحامي يتكلم وسط القاعة كأنه في محكمة يحكي للحضور عن

مشكلتي فبدأوا التجاوب معه بطرح الأسئلة، و السخرية من وضعيتي الغريبة متأسفين كون العراق و المغرب ليستا دولتين متجاورتين ، لكانت حدودهما تصلح لي وطنا بديلاً، لينضاف إلى المتحاورين حارس الباب الذي كان عراقيا هو الآخر موجها سؤاله لي "هل ستقبل الخدمة العسكرية "فحركت راسي بالإيجاب .فبدا الجميع يهمس بصوت خافت" طبعا سيقبل " نعم من المنطقي ان أقدم حياتي للوطن، لكن أحدا لم يتذكر انه ليس لي وطن؛ فقاطعنا الموظف مطالباً إيانا مرافقته الى الداخل.

نعبر الحديقة بعدها تتوالى الغرف والممرات ومعه يتردد سؤال الحارس كالصّدى المستفز فقد تحولت الأوطان لقابضي الأرواح أكثر من كونها مكانا للعيش والأمان فهي لا تقدم لك أي شيء وتطلب منك كل شيء، هكذا كانت تأملاتي إلى ان وصلنا الى قاعة بها مكتب القنصل، الذي استقبلنا فيه الملحق الصحفي بسبب غياب هذا الأخير .بعد البدء في مناقشة مشكلتي بدا الملحق حاداً مع المحامي مع اعتباطية لم يسلم منها هذا الأخير، جعلته لا يعرف الجواب على بعض التفاصيل كونه لم يدرس الملف بجدية مما جعلني أتدخل بين الفينة والأخرى لتوضيح بعد النقط التي يستقبلها الملحق بأريحية أكبر من استقباله لخطاب المحامي، فانتهت المقابلة باستلام الملف لمراسلة بغداد و انتظار حسمهم هناك في الموضوع، مع مخاطبته للمحامي ان يدرس إمكانية ان تسجلني أمي باسمها كإبن غير شرعي إلى ان يجدوا حلا للموضوع، فأجابه المحامي أني أتوفر على عقد ازدياد كإبن لمواطن عراقي وان اقتراحه يعني ان نتلاعب بالقانون بالتزوير .فغادرنا السفارة على أمل ان تتكلم بغداد فالرضيع صار رجلا وهي لم تنطق بعد.!

في هذه الأثناء كان أطفال الحي يعيشون منحنى مختلفا عن الذي كنت أعيش عليه، وتحولت صداقتنا الطويلة إلى مجرد تبادل للتحية كلما صادفتهم في الحي، فلقد وجدوا في المخدرات ملاذاً يهربون إليه من واقعهم الصعب في الوقت الذي اخترت فيه الأمل

الحالم كمخدر وحيد لي وخمر الأفلام والمسلسلات، منفذي المفضل في ظل أبواب كلها مقفلة.
ولان الوقت يتسرب بثبات فكل ما نؤجله اليوم سوف نلتقي به غداً، فالسنتين اللتين كنت اختبئ فيهما وراء شخصية التلميذ في مركز التكوين المهني انتهت، دون ان أتعلم أي شيء، حتى دورتي التدريبية في أحد محلات الإصلاح قضيتها في حك واجهات الأجهزة التي سيجدد طلاؤها .لكني حصلت على شهادة مصلح للأجهزة الكهرومنزلية فقد كان هناك تواطؤ من المراقبين في الامتحانات الذي لولاه لرسب القسم كله، وهم لا يقومون بذلك لمساعدتنا ولكن للتغطية عن تهاونهم وعدم قيامهم بواجباتهم كما ينبغي، فعندما يفشل فريق كرة القدم أول من يحاسب هو المدرب وإدارة النادي، وهنا المدرب والإدارة هم من يقومون بدور الحكم.
أمي لم تعد تشتغل مباشرةً مع أرباب العمل، بل توظفت عن طريق وسيط دائم يقوم بتوزيع العاملات على أماكن مختلفة مشكلاً فريقاً من المراقبين لإدارتهن، ويفوتر ساعات عملهم على الزبون بأضعاف ما كانوا سيتقاضونه العاملات لو اشتغلوا مباشرة معه، كل هذا ليتهرب الزبون من مسؤوليته المباشرة عليهن، فتكون النتيجة عاملات مجهدات بساعات العمل الطويلة واجر اقل مقابل تنفع الوسيط الذي يوظفهن، وفي حالات كثيرة لا يتوفرن حتى على تأمين صحي وتقاعد فالغالبية من مفتشي الشغل يتعاطون الرشوة مقابل التستر على المخالفات، فكانت أمي دائماً تعود مجهدة بساعات من العمل الإضافية التي لا تعوض عليها بأي شكل من الأشكال مع أمنيتها أن تتحسن الظروف يوماً ويكون لها صندوق تقاعد يحفظ كرامتها عندما تخونها صحتها، فهي لم تعد تتوقع الكثير مني وأنا إنسان مبني للمجهول.
يقال ان ابن البط يجيد السباحة، واليوم أتت لي أمي بفرصة لاختبر في ذلك، فالشركة تطلب عمال مؤقتين لجمع النفاية من البحر، لكي تزوره إحدى الأميرات التي كانت تترأس حملة شعارها" شواطئ

نظيفة"، فوافقت وأنا سعيد لأني سأحظى بفرصة عمل .توجهت إلى مقر الشركة لأسجل نفسي والتقي بالمراقب الذي ضرب لنا موعداً على الساعة الخامسة صباحاً في شاطئ الدار البيضاء الرئيسي والمعروف باسم" عين الذئاب."

التقيت هناك في الوقت المحدد مع شباب آخرين معظمهم كانوا من عائلات عمال وعاملات النظافة في الشركة ، أعطونا لباساً عليه شعار الحملة واسم الشركة وكيسا اخضرا كبيرا، وحددوا لنا توقيت العمل من الساعة السادسة صباحا للثانية بعد الزوال، وقسمونا كفرق متكونة من فردين مقسمين الشاطئ بينهم .

أمضيت يومي الأول مع شاب أمه تعمل مع أمي، وكان هو الأخر يدرس بمركز التكوين المهني لكن لم يسبق لي التعرف عليه، فكنا نتبادل الحوار ونحن نجمع القمامة من الأرض، ومع طلوع الشمس يتكاثر المصطافون ونحن نتجول بينهم وأعيننا تبحث عن المخلفات كمنقبين عن الكنوز، لكننا سرعان ما تحولنا إلى كيس قمامة متجول يضع به المارة الازبال، إلى ان ينتهي دوامي وأنا مرهق ووجهي محترق بأشعة الشمس ،لدرجة انه تحول إلى اللون البنيّ الغامق، وهذا كان يطمئنني كون حظوظ التعرف علي كانت قليلة من قبل من يعرفني، فقد لمحت أشخاصا كثيرين من حينا و تلاميذ سابقين من الإعدادية، كان بعضهم يشارك في الأنشطة الترفيهية على الشاطئ في الوقت الذي كنت اجمع فيه القمامة.

لكن الأربعة أيام انتهت بزيارة الأميرة كما كان مخططاً لها وقد عملنا ذلك اليوم بتوقيت مضاعف، مع حصولنا على وجبة غداء بسيطة ولباس جديد من اجل الحفاظ على المظاهر. في المساء اجتمعنا لتلقي أجرتنا، بعد شرطهم استرجاع اللباس الجديد، قبل أن يوزعوا علينا النقود التي لم يحتسبوا لنا فيها اليوم المضاعف رغم ان الأجرة كانت جد هزيلة في الأصل، فلم أكن أستطيع الإصرار على استرجاع حق العمل المضاعف لكيلا اسبب المشاكل لأمي، فعدت إلى البيت وأنا اجتر ورائي خيبة الأمل إلى ان وصلت إلى البيت لكني كنت

سعيداً بإعطاء أمي المبلغ كاملا فأنا لم أتردد في العمل حتى لا تعتقد ان ابنها لا يعتمد عليه.

أمضيت الوقت بعد تخرجي عاطلاً عن العمل كغالبية شباب الحي، لكن عوض قضاء الوقت أمام مدخل الحي متكئاً على جدرانه، كنت أتتبع القنوات الفضائية حسب البرامج المعروضة والمسلسلات والأفلام منتظراً أمي ان تعود في المساء، واستغل نزول ظلام الليل حتى اخرج لاقف أمام مدخل المنزل كمعتقل يقضي فترة النزهة.

الفصل السادس

لا أريد العالم يا أمي أعطني يديكِ فقط

حتى تدعم أمي مداخيلها، كانت تشتغل بالتناوب مع زميلاتها في المساء، ينظفن مراحيض المجمع التجاري، الذي كان يضم مكاتب في طوابقه العلوية، ومتاجر ومقاهي في أرضيته السفليّة، مقابل دراهم يتركها الزوّار عن طيب خاطر.

ولان الدور كان عليها هذا الأسبوع فقد توقعت تأخرها غير انه كان طويلاً نوعا ما هذه الليلة، فمنذ طفولتي وأنا لا أستطيع مقاومة الأفكار السيئة التي تراودني كلما تأخرت، فأنا لا املك عائلة غيرها، وتأخرها بالليل كان يخلق صمتاً رهيباً، وأنا أعيش هذا الصمت تفتح باب الغرفة دون ان تصدر وقع أقدامها المعتاد، منحنية تمسك ببطنها وفمها عليه ضمادة، وهي تقول بصوت منخفض" لقد تعرضت لحادث"، تفحصت فمها فوجدت أسنانها مهشمة، و هي تحكي التفاصيل قالت لي:

-ان السائق هرب، و أنهم رفضوا علاجها في البداية لأنها لا تتوفر على المال و ان المداومين في المستشفى طلبوا منها عدم الرجوع بعد ان اخذوا لها صورة بالأشعة لبطنها و أعطوها مضادات حيوية، و أضافت أنها استلقت لهم في الممر إلى ان اضطروا لفحصها لكي يتخلصوا منها.

بعد انقضاء أربعة أيام دون تحسن حالتها قمت بإرجاعها مع خالي الذي جاء لزيارتها فور سماعه بالحادث إلى المستشفى، لكن هذه المرة بعد أداء كل الرسوم، التي استلفها خالي من ابنته التي استلفت بدورها جزءً منها من زميلتها بالعمل، فكانت نتيجة الفحوصات أنها تعاني من ثقب في الأمعاء يحتاج علاجه لتدخل جراحي والذي أخرج على إثرها جزء من أمعاءها للتغوط في كيس خارجي، مع طلبهم منا أخذها للبيت في اليوم الثالث وهي لا تقوى حتى على الوقوف، دون إعطائنا أية إرشادات في كيفية التعامل مع حالتها، و هي تحتاج أيضا لعناية خاصة بجرحها المتعفّن، لسوء مستوى التعقيم في غرف العمليات، فمعظم الحالات كانت تعاني من نفس المشكل، لكن

وسط فرض الأمر الواقع وكون أمي لن تتلقى بعدها أي اهتمام من الطبيب و الطاقم الطبي، كنا ملزمين بأخذها، وقد اقترح خالي أخذها لمنزله الصفيحي بنواحي مدينة المحمدية، و قد تضامن زملاء أمي من العاملين و جمعوا مبلغا بسيطا من المال و اعطو جزءً منه لخالي و الآخر لي لأتدبر أموري.

بعد أخذ أمي إلى المحمدية بدأت اعتني بجرحها الذي لم يكن يتحسن كثيراً مع فقدها لوزنها بشكل جعلها تبدو كهيكل بشري، في تلك الأثناء تلقيت اتصالا من مراقبة كانت تشرف على أمي في العمل تخبرني أنها حصلت لي على فرصة عمل كبائع في أحد المتاجر الصغيرة، فتوجهت في اليوم الموالي لأجري مقابلة مع صاحبته، كان محلا للهدايا وبيع التبغ وكانت صاحبته سيدة مطلقة ولها ابن، سلمتني فوراً المفاتيح وطلبت مني المداومة في اليوم التالي مع تأكيد الأجر الذي أخبرت به المراقبة قبْلياً.

بدأت عملي الجديد وكنت أتجنب الرجوع إلى المحمدية بسبب تأخري في العمل ليلا، إلى ان وصلت إجازة نهاية الأسبوع، فذهبت لزيارة أمي وأنا احمل ما تحبه من الفواكه والخضر، لكني وجدتها في حال سيء، فزوجة خالي كانت منزعجة من العناية بها بالإضافة، إلى جرحها الذي يزداد سوءً يوماً بعد يوم، فكان لابد من أخذها إلى المستشفى على عجل، وأنا جدّ منزعج لان أمي كانت تؤكد لي كونها بخير كلما اتصلت بها.

لكن لطول المسافة لم أجد أحداً يأخذنا معه إلى المستشفى، فانتظرت يوم الاثنين لأخبر ربة العمل التي تتوفر على سيارة فقبلت جلبها، فذهبنا لإحضارها؛ وهي تغادر معنا كمن يعاقب أحداً برحيله لأنها لم تتلقى معاملة إنسانية من زوجة خالي وبناته فهم ضجروا منها بسرعة لأنهم لن يستفيدوا شيئا من العناية بها.

بعد وصولنا إلى المستشفى تكلف بأمي موظف في المستشفى من أقارب ربة العمل، فأصبحنا نتلقى معاملة واهتماما كالعيادات الخاصة، وأعطونا رقم أحد الممرضين لكي يأتي إلى البيت ليغير ضماداتها مقابل اجر.

فأخذت بعدها أمي الى الغرفة، يساعدني في العناية بها الجيران وبعض زميلاتها في العمل، لكن مع الوقت صارت الأعداد تتناقص إلى ان بقينا لوحدنا، وكم كنت سعيداً عندما تعافت أمي حتى صار بمقدورها إعداد الطعام لي .أما في عملي فقد طورت نشاطات المحل فتحول من محل مفلس إلى محل منتج، لكن صاحبة المحل لم تكن تفي بالتزاماتها المالية اتجاهي وقد مرت ثلاثة أشهر وأنا أتلقى نصف الراتب الذي اتفقنا عليه رغم وعودها وخطبها، وكم كنت أحس بالبؤس عندما عرفت ان ما أتقاضاه من راتب لا يصل حتى إلى نصف فاتورة هاتفها الخلوي أو نفقات دراسة ابنها، كل هذا جعلني اشعر بحنق شديد لأنها كانت تستغل ظروفي كوني بلا بطاقة هوية لتعاملني كمهاجر غير شرعي ليس له خيار غير الخضوع.

وقع طبول الحرب يسمع من جديد في العراق، والعالم كله ينتظر أحداث شريط الإثارة الجديد عبر قنوات الأخبار التي اتحدت جميعها على شعار واحد وهو نقل الحقيقة .الحقيقة التي لا يعرفونها أصلا .

بعد ساعة الصفر، أعطيت الانطلاقة لاستباحة وطن أنهكته الحروب والحصار بسبب أخطاء دفع ثمنها الشعب، وكأنهم يخرجون جثة لشنقها من جديد، والعالم ينظر لمشهد الطائرات والصواريخ تنفجر، غير مفرقين بين الواقع وما يشاهدونه في الأفلام، كأنها لن تخلف ضحايا حقيقيين، في حرب استعراضية غير متكافئة .

بعد انتهائي من العمل أزور" هشام "زميلي السابق في مركز التكوين بين الفينة والأخرى لنتبادل الحوار، و كان الحدث المهم اليوم هو

دخول الأمريكيين إلى بغداد، و كل المتتبعين و منهم أنا كنا نعتقد ان بغداد لم تسقط حقاً بهذه السهولة وان الموضوع مجرد تكتيك حربي، كما تعودنا عليه في سيناريوهات الأفلام، لكن الأيام التي تلت جعلتنا نتخلى عن تلك الفكرة و نقبل بهزيمة الجيش العراقي الذي كان يحارب بمعداته المتهالكة و المنهك بسنوات الحصار؛ فضل دفن طائراته في الرمال على الانتحار بها في طلعات يائسة، كمن يستخدم مدافع نابليون في حرب النجوم.

كل تلك الأموال التي صرفت على أسلحة لا تصلح في النهاية سوى للقمع الداخلي، فلو أنفقت على الشعوب واحتياجاتها لما تمردت أصلا، فالناس عادة لا تهتم بجنس أو انتماء القاضي طالما كان عادلاً، ولا المريض يهتم بديانة من صنع دواءه.

بعد سقوط النظام العراقي أقفلت السفارة العراقية بالرباط، فاغتنمنا الفرصة وتوجهت أمي إلى المقر الرئيسي للأمن لاستخراج بطاقة هوية عبارة عن إقامة تجدد كل سنة، و رغم أني أتوفر على وثائق ولادة من السلطات المغربية إلا ان احد الشروط كانت جلب شهادة من السفارة أو جواز سفر يثبت أني عراقي، و كون السفارة مغلقة استغلت أمي الوضع لتعطي عذراً مقبولاً للمسؤول عن المصلحة قبلوا على إثره إصدار بطاقة إقامتي لأتحول إلى مبني للمعلوم في لحظة، و قد سلموها شهادة أولية مدتها شهر يليها البطاقة الرسمية، و أمي بدورها سلمتني الشهادة وقالت لي "أرادني الله ان أعيش بعد الحادث حتى أكمل لك وثائقك ."

صرت أتجول وأنا احمل تلك الشهادة في حال تعرضت لتحقيق الهوية من أحد أفراد الشرطة، وبكل فخر أريها لكل من صادفته من أصدقائي ومعارفي.

بينما يدمر وطني وتنتهك كرامة مواطنيه، وتتوالى فضائح الانتهاكات، تتعالى بعض الآراء في وسطي كرأي أخ صاحبة المحل،

الذي جاء لزيارتي متأثراً بسرقة المتحف الكبير ببغداد، أكثر من ألمه على ضياع شعب بكامله .هكذا نحن في أوطاننا مجرد تفاصيل ليست لها قيمة كنسخ قابلة للتعويض إذا فقدت، فلو كان له قلب به إنسانية لتألم لي أنا الذي توظفني أخته لمدة إحدى عشرة ساعة باليوم دون إجازة نهاية الأسبوع وبلا غطاء صحي أو تقاعدي، فعواطفهم المنحازة تفتقر إلى الموضوعية، دائماً منشغلين بالقضايا العالمية التي ليس لنا قدرة على تغييرها للتهرب من القيام بما علينا القيام به في محيطنا .كأن لسان حالنا يقول" انظر إلى هم الناس فأنسى همي "

سابقا كان يتوقف الناس على كوني عراقي، أما الآن فلا أحد يفوت فرصة السؤال هل أنا سني أو شيعي؟، سؤال لم يسأله لي قبلاً أحد في السفارة العراقية، أو تكلمت عليه أمي كنقطة مهمة في ثقافة العراقيين، بما أنها عاشت وسطهم لسنوات، لان وراء هذا السؤال واقع جديد يصنع هناك وهي أرضية بدأت منها كل الحروب الأهلية لمختلف الشعوب، فالأحداث المتسارعة تهدف إلى التلاعب بالتاريخ لكي لا يسجلها .

كأن ما يرتكب هناك من جرائم بشعة ليس لها مكان في الذاكرة الإنسانية ولا تعني أحدا.

بعد ان عادت أمي للعمل من جديد بعد تعافيها، فقدت أنا عملي لأني صرت متمردا في تعاملي مع صاحبة المحل، فأنا مللت استغلالي خصوصاً أني صرت مقيماً قانونياً ولديَ بطاقة إقامة قابلة للتجديد كل سنة، فكانت نتيجتها ان طردتني فلم يعد مني نفع لأني لم اعد أصلح للاستغلال، لكن المحل اقفل بعدها لغياب مسير جيد رغم انها وفرت لهم ظروف عمل أحسن مني.

بعد ان فقدت عملي الثابت، بدأت اتعاطى مهنا مختلفة كتركيب الهوائيات والاشتغال بالمقاهي، والعطالة بين الفينة والأخرى، حتى

حصلت أمي على التعويض من شركة التأمين التي كانت تؤمن السائق الهارب لأنه لحسن الحظ كان فاعل خير شهد في تلك الليلة، فقد عرفت تفاصيل أكثر عند قراءة الملف الذي سلمته المحامية لأمي مع التعويض الزهيد الذي لا يغير شيئا من واقع سيدة هشمت أسنانها وعانت الألم الكبير بسبب إخراج أمعائها خارج جسدها لأشهر واحتراق بشرة بطنها بالعصارة الهضمية، مبلغ بالكاد يعوض جزءً من مصاريف العلاج الكثيرة و أشهر التوقف عن العمل، أما السائق الهارب فكان يعمل مفتش في وزارة التعليم لذا كانت عقوبته غرامة بخمس مئة درهم رغم ان الفرار مثبت بالشهود و اعترافه بان أجزاء السيارة المكسرة في مكان الحادث تعود لسيارته إلا انه لا يعرف من ساق سيارته تلك الليلة .فالمحكمة كانت رحيمة بشركة التأمين وبالسائق المتهور أما أمي فلم يبالي بألمها أحد، ولو بقدر مبالاتهم بمتحف بغداد.

الفصل السابع

لن أغادر الدنيا مكسور الجناحين

أمي التي تضعني في أولوياتها، قررت استثمار جزء من المبلغ مع المحامية نفسها لكي تحاول الحصول على جنسيتي العراقية، فحل الإقامة مجرد حل ترقيعي، لا يصلح للأمد البعيد، فأخذت المحامية الدفعة الأولى من الأتعاب، دون ان تفعل الكثير سوى مراسلة والدي في عناوينه القديمة، ومراسلة السفارة العراقية لكنها رفضت الذهاب لمقابلتهم وقالت لأمي " كنت اذهب لو كانت سفارة دولة غربية لأنهم سيعاملونني باحترام."

من جهتي بعثت برسالة إلى الوزارة المكلفة بالجالية المغربية، لكنها لم ترد على رسالتي، واتصلت بجمعية حقوق الإنسان ،لكن جوابها كان على انه ليس بإمكانهم فعل شيء فمشكلتي سيادية وليس لهم التدخل فيها.

بعدها توجهت إلى السفارة العراقية، استقبلني المقتصد وتوجه بي إلى القنصل الجديد ليسمع مشكلتي، فبدأ بالسخرية من وضعيتي و هو يقول ان وثائقي المغربية لا تضيف شيئا لقضيتي لان أي مسؤول في الدولة المغربية ممكن ان يوفرها لي، فوعدني بمراسلة بغداد في الموضوع وليس لنا إلا الاحتكام لقراراتها .

خرجت من السفارة لكن هذه المرة استرجعت ملفي لكي لا أضيعه مع ما أضعت من وقت في هذه المقابلة، فبغداد لم تجبني حتى وهي واقفة على رجليها فما بالك الآن وهي ساقطة.

وأنا أتوجه إلى محطة الحافلات راودتني فكرة جديدة وهي الالتجاء إلى الصحافة، فاتصلت برقم الإرشادات لأطلب رقم صحيفة مشهورة، بعدها اتصلت بالاستعلامات وطلبت التحدث مع صحفي فطلبت مني السيدة تحديد العمود المعني بطلبي و عرضت علي أمثلة، كوني غير ملم بعالم الصحافة، اخترت العمود الاجتماعي، فأحالتني على الصحفي المعني، فحكيت له مشكلتي فسألني " أين

أنت الآن؟ هل تستطيع المجيء إلى مكتب الصحيفة فورا ؟ "فأجبته بالإيجاب.

توجهت إلى مكتب الصحيفة مباشرةً عند وصولي إلى الدار البيضاء، فاستقبلني الصحفي وطلب مني ان أقص عليه مشكلتي بالتفصيل الممل وهو يطّلع على ملفي المكدس بالأوراق المغربية و العراقية، وقد قصصت عليه محاولاتي المتكررة و طرقي لباب جهات مختلفة، فابتسم بسخرية لما سمع الرد الذي تلقيته من جمعية حقوق الإنسان، بعد الانتهاء طلب مني رقم السفارة العراقية ليتصل بهم في حضوري، فحولته الاستعلامات لمكتب المقتصد عند تعريفه بهويته، فتبادل الحوار معه ليؤكد له المقتصد أني كنت في زيارتهم هذا الصباح، فأجابه الصحفي" قلتم له ان الوثائق المغربية بلا قيمة و ممكن ان يحصل عليها بسهولة و هذا بعينه يعتبر قذفا و تشهيرا في مصداقية الدولة المغربية"، بعدها انتهت المكالمة ليحكي لي الصحفي ما قاله المقتصد له و انه ارتبك و طلب منه عدم نشر شيء في الموضوع و أنهم سيسوون وضعيتي.

لكن الصحفي أكد لي انه بالرغم من تلك الوعود فهو سينشر قصتي . محدداً لي تاريخ صدور العدد .

بعدها اتصلت بالسفارة فكلمني المقتصد، حتى أعرف مدى جديته في حل مشكلتي كما وعد الصحفي، فأجابني انه ليس بإمكانهم فعل شيء دون الرجوع لبغداد، فهددته بالتوجه إلى صحف أخرى لطرح الموضوع على الرأي العام وأسلّط الضوء على قضيتي .وهكذا وجدت قبلة جديدة وأسلوبا جديدا للضغط من اجل حقوقي، فتوالت المقالات التي عليها صوري معبرين فيها بكل حرية عن تقصير الجانب العراقي في المشكلة، لكني لم أكن أعير الموضوع أهمية فالحصول على دعم جهة أفضل من المحاربة على جبهتين.

راسلت بعدها القنصل وخاطبته بمثل كنت اسمعه يتكرر كثيراً وهو "رضينا بالهم والهم لم يرض بنا"، فلو كنت ابن مواطن من دولة تعطي امتيازات لمواطنيها لما شردت هكذا وعانيت ما أعانيه، فماذا يا ترى سأستفيد بالمطالبة بالجنسية العراقية، ولو كان بإمكاني الادعاء أو تزوير الوثائق كان الأحرى بي الحصول على جنسية الوطن الذي ولدت فيه أو استهدف جنسية بلد أخر، خلاف هذا وذاك فأنا أعطي حبي، وافتخر بالانتماء إلى وطن يرفضني.

هدأت عاصفة الصحف، وأنست الناس مشاكل أخرى مشكلتي، واستسلمت للسكون كجندي أطلق آخر رصاصة من بندقيته، فتحول أملي الوحيد في الحياة إلى الموت بعينه ،لأنه الخلاص الوحيد من هذه الدوامة، فقد كنت أعزي نفسي بأني في أسوأ الظروف سأنتحر، وفعلا بدأت أضع السيناريوهات الأقل ألماً، وبما أني أفكر في الانتحار فان رأسي يغرق بالتفكير في مصير أمي من بعدي؛ فقضيت ليال طوال و فكرة ترك أمي للمجهول تؤرقني و تقض مضجعي، حتى راودتني فكرة أخرى حسبتها مخرجا من النفق، فكرة بيع إحدى كِليتي وكانت قبلة بحثي في هذا الموضوع هو الشبكة العنكبوتية لأنه ليس من المعقول أن تسأل أحدا في الشارع ليدلك على الطريقة الصحيحة لتحقيق هذا الأمر.

فبدأت أتصفح المواقع الرقمية من مقهى الانترنت في الحي، فوجدت أشخاصا كُثرا قد سبقوني بعرض بضاعتهم او اجزاءً منهم، كمن يعرض قطع غيار مستعملة .

منهم من يعرض كِلية ومنهم من يعرض الكبد، لكن على خلافي فهم يعرفون فصيلة دمهم لذا تريثت في عرض بضاعتي أنا الآخر، حتى احصل على فصيلة النموذج.

ولأني لا أتوفر على مبلغ التحاليل قصدت مركز التبرع بالدم لكي أتبرع واحصل على تحاليل مجانية.

دخلت إلى أقرب مركز متوجها إلى سيدة الاستقبال التي أعطتني نبذة ورقية تعرّف بأهمية التبرع طالبةً مني الانتظار إلى ان يتكفل بي أحد الأطباء، وبينما لم يكتمل حواري مع السيدة تقدم نحوي شخص يلبس نظارات شمسية وشكله غير مريح، يطلب مني ان أتبرع لوالده الذي يرقد في المستشفى فالحصول على كيس الدم ليس مجانيا ولتجنب الدفع يطلب منك ان تأتي بخمسة متبرعين، ورغم ذلك فإنهم لا يعتبرون نفسهم يبيعون الكيس فهم يبررون ذلك على أنهم يسترجعون فقط مصاريف الحفظ والتحاليل .

شكل ذلك الشخص المشبوه وشكل سيدة الاستقبال وهي تتبادل معي نظرات غير مؤيدة لتعاوني معه دفعتني إلى التنصل منه بادعاء توجهي للاستفسار عند أحد الأطباء فوجهتني الممرضة إلى مكان تواجدهم في أحد الممرات الضيقة حيث وجدتهم منشغلين بالدردشة متجاهلين وجودي فقاطعتهم بكلمة" عفواً "فالتفتوا إلي بملامح منزعجة مخاطباً إياي احدهم ان انتظر؛ كأنهم هم من سيتبرعون لي.

فعدت أدراجي متخلياً عن فكرة التبرع ولو كنت سأحصل على تحاليل مجانية، فهي ليست مجانية في آخر المطاف بل سيدفع ثمنها مشتري الكيس .فليس غريباً إذا كانوا يعانون من ضعف الإقبال على التبرع، لماذا لا يتبرعون هم بدورهم بالمصاريف الجانبية، فحتى المتبرع لا يحصل على دمه من فراغ فهناك مصاريف تغذيته وتحمل الم دخول الإبرة في وريده بالإضافة إلى الوقت والجهد .فأنا متأكد لو غيروا من هذه التفاصيل لأصبحوا يصدرون الدم عوض نقص مخزونهم الدائم.

رجعت من حيث انطلقت، فأدخلت رقم هاتفي وعبّرت عن رغبتي في التبرع بكليتي دون ذكر موضوع البيع لكيلا اعرض نفسي للاعتقال.

مضت أيام إلى ان رن هاتفي فأحسست كالصياد عندما تلامس سمكة خيط صنارته؛ أجبت متحمسا فردت عليّ فتاة مخاطبة إياي بالتلميحات، فقبلت مقابلتها في مقهى قريب من وسط المدينة.

في اليوم الثاني توجهت والتوتر يرافقني للموعد .ووجدتها جالسة وبرفقتها رجل، بعد تبادل التحية لم نستهلك الكثير من الوقت حتى دخلنا في صلب الموضوع.

قالت لي أنها تبحث عن متبرع لأحد أفراد عائلتها المتواجد في فرنسا، وهي تحكي كنت اسمع لها بعيني مدققاً في التفاصيل ومنها اثر إبرة على يد الرجل الذي كان يرافقها ولا يتكلم كثيراً، ولأني كنت اسمع ان رجال الأمن يطلب منهم التبرع بالدم بشكل دوري فأنا لم استبعد فرضية ان أكون في كمين .وأيضا الهاتف النقال الذي وضع فوق الطاولة بشكل يثير الشبهة.

فكنت حذراً جداً فيما أقول خصوصاً مع إدراكنا لموضوع التفاوض عن المبلغ، فقد استغربت أنها لم تسألني عن فصيلة دمي .فأجبتها:

-ان الموضوع ليس تجارة بقدر ما هو احتياج، فالشخص الذي تنوبين عنه يحتاج شيئاً لا يملكه و املكه و أنا عكس ذلك .اعرف ان المجتمع ينهال على شاكلتي بأحكام قاسية لكن قسوة المجتمع نفسه وأنانيته هي من تخلق حالات مثل حالتي فهو يدير لك ظهره وقت احتياجك وعندما تسقط في الخطأ يوجه لك انتقاداته حتى الدولة لا تطعمك وتأويك إلا عندما ترتكب جريمة، هل تعتقدين انه لو كان عندي بديل سأختار هذه الطريق اليائسة، هل يعقل ان الناس هي التي لا ترغب في العمل وفي بناء مستقبلها؛ إذا لماذا هناك شيء اسمه مؤشر البطالة ولماذا أكبر الدول تعمل على نظام الحماية الاجتماعية هل تلك الدول غبية وتشجع على التواكل؟ نحن لا نعيش في أوطان ولكن مجرد فنادق ينتهي مقامك بها عندما يفرغ جيبك.

هكذا دخلنا في حوارات جانبية متشعبة فأسهبت في الحديث كمعزول عن البشرية لم يتكلم منذ سنوات بينما هي تصغي إلي باهتمام بالغ وبصبر كبير لتمضي الساعات دون ان نتفق في الموضوع الرئيسي للقائنا.

انتهت المقابلة بوعدها لي أننا سنلتقي في موعد آخر للاتفاق على التفاصيل، أما أنا فقد كنت سعيداً كمن انتهى لتوه من حلقة للحوار العلاجي.

عدت مرة أخرى من حيت كنت انطلق لكن هذه المرة لكي أحاول التعرف على هوية السيدة الحقيقية، فقمت بإدخال رقم هاتفها على محرك البحث فوجدت إعلانا لبيع سيارة مستخدمة باسم غير الاسم الذي عرفت نفسها به.

تخيلت أمورا عديدة لكني كنت مرتاحا كوني لم أخض في تفاصيل قد تستخدم ضدي.

بعد أسبوع اتصلت بي من جديد طالبةً مني موعدا، فقبلت فوراً لان أجندتي فارغة حتى من السطور.

التقينا في نفس المكان ومعها نفس الشخص لكن لون شعرها مختلف؛ فآخر مرة كان اسود وتصفيفته تشبه تصفيفة كليوباترا، أما الآن فشعرها بني فاتح ومتوسط الطول، بالإضافة إلى ابتسامتها كأنها تقول هل عرفتني؟؟

-نبيل بصراحة أنا لست مهتمة بشراء كليتك بل أنا صحفية بصدد انجاز حلقة من برنامجي على القناة الرسمية و قد التقيت أشخاصا غيرك لكني جد مهتمة لمداخلة لك معي في البرنامج، لا أريد ان اسبق الأحداث لكني كلمت مديري عنك و قد لمح لي إلى إمكانية مساعدتك لحل مشاكلك بعد ظهورك على شاشة التلفاز.

-اعتذر لأني لم أعرفك و لم اسمع ببرنامجك من قبل، فتلفازنا معطل منذ سنوات، لكني عرفت انك لست ما تدعين فقد وجدت إعلانك باسمك الحقيقي ولو كان تلفازنا يعمل لكشفتك بسرعة.

-كيف ذلك؟

-بالبحث برقم هاتفك على محرك البحث، ألست تملكين سيارة نوع رونو فرنسية؟

-ااااه يا إلهي!!

ودخلت في المواضيع الجانبية من جديد لساعات دون ان تظهر عليها علامات ألضجر، إلى ان تعبت من الحديث، منهياً اللقاء معها متحمسا للاستجابة لطلبها.

مع وصولي إلى الغرفة بدأت أفكر في الموضوع. إلى ما يمكن ان يحدث لي وما يمكن ان أتعرض له من متابعة قضائية وإحراج أمام المجتمع.

عند اقتراب موعد تسجيل الحلقة بعثت برسالة قصيرة اعتذر فيها عن المشاركة واطلب فيها عدم الإلحاح لان وضعيتي لا تؤهلني ان اتخذ القرار السليم.

كان آخر ما تبادلته معها فقد اختفت بعد ذلك، ولم يقدم مديرها أية مساعدة. فلا شيء بلا مقابل. حتى لو كان المقابل فقط ظهورهم كأبطال واستغلالي من قبل البعض للترويج لأشخاصهم.

بين صباح ومساء تمضي رتابة الأيام، إلى أن رن هاتفي في صباح ذلك اليوم، أجبت على رقم مفتاحه يخص مدينة الرباط، فسألني المخاطب باللهجة العراقية ان كنت السيد نبيل، فأجبته " أنا

المتكلم"، فرد عليّ انه يتصل من السفارة العراقية ليخبرني ان بغداد ردت بالإيجاب على حل مشكلتي وإصدار وثائقي العراقية، ودون ان اشعر قفزت من مكاني كلاعب كرة قدم سجل هدف النصر، ووصفت للمتكلم غمرة فرحي بسماع الخبر، فأجابني" تستحق كل الخير"، وطلب مني الحضور غداً لإكمال الإجراءات.

انتظرت أمي بفارغ الصبر حتى عادت من عملها، فقلت لها بمجرد دخولها للغرفة:

-خمني من اتصل بي اليوم يا أمي ؟؟

-من اتصل بك ؟؟

-السفارة العراقية ليخبروني ان مشكلتي وصلت لنهايتها.

فابتهجت وباركت لي الإنجاز وتعانقنا مقبلاً رأسها، مكملين ليلتنا نتسامر ونتبادل أطراف الحديث عن مشكلتي منذ بدايتها ونكرر الأحداث بلا ملل بكثرة الفرحة، وعند خلودنا للنوم لم أستطع مقاومة الأرق الذي تسببت لي به الفرحة فما كان إلا أن أمضيت ليلة بيضاء انتظر فيها شمس اليوم الجديد.

نهضت من فراشي مبكراً لأتوجه إلى محطة القطار، لتنتهي بي الرحلة جالساً بين المراجعين من العراقيين في السفارة، فكنت اخر من استقبله القنصل لأنه تمت الكثير من الإجراءات التي كان عليهم القيام بها من أجلى .لكن الدور وصلني بعد ان فرغت السفارة من العراقيين، ليخبرني رجل الاستقبال انه لمقابلة القنصل، فدخلت إلى مكتب غير الذي كان مخصصاً في أول زيارتي له، فقد أثث مكتبه الجديد بمقاعد شرقية حمراء اللون، مع خلفية لمكتبه؛ عبارة عن نافذة كبيرة تسمح برؤية الحديقة والجو بالخارج الذي كان مغيماً وشتوياً يخلق بداخلي نوستالجيا من الأحاسيس .أشار إلي القنصل بالجلوس، إلى ان يكمل محادثته الهاتفية، مع شخص خمنت انه من عائلته لأنه خاطبه" بكون الرباط جميلة لكنها مظلمة من دونهم ."

أمضيت مدة مكالمته الهاتفية وأنا أتأمل المنظر من النافذة، وتفحص تفاصيل الأثاث الجديد، وقد وضعوا كأس الشاي أمامي، رشفت منه بضع رشفات بصعوبة لشدة سخونته، لكنها كانت أول مرة يقدم لي فيها الشاي بمكتب القنصل، بعد ان اتمم مكالمته رحب بي و قال" هل تعرف سبب استدعائي لك "و هو يتكلم كمن يريد ان يفاجئ شخصا، فلم أرد ان افسد عليه المحاولة بأخباره ان الكاتب اخبرني عندما هاتفني، لكني لم استطع ان اكذب عليه أيضا فقلت له عن الموضوع، فحرك رأسه بالتأكيد على ما اخبروني به، و قد وقف الكاتب بجواره يحرر لي شهادة ولادتي و جواز سفري طالبا مني التوجه للمقتصد لأداء بعض الرسوم القانونية ليسجلوا على كل وثيقة رقم الوصل الخاص بها، فذهبت و عدت بالوصولات، لإتمام الإجراءات، فكانت أول وثيقة يسلمها لي هي شهادة الولادة العراقية، بعدها جواز السفر العراقي، وهو يقول:

-أنت الآن عراقي .

استلمت منه الوثائق وأمسكتها كمن يمسك مولودة لأول مرة والسؤال يراودني وأنا أتأمل في جواز سفري وفي كلمات القنصل" يا ترى ماذا كُنت قبلا؟."

النهاية

انتظروني في الجزء الثاني ان شاءت الاقدار
ف للحكاية بقية.